

هنري لورنس

الغارات والمسافر شرق

ترجمة: بشير السباعي



المكتبة
العلمية
للشؤون



532

المشروع القومي للترجمة

المغامر والمستشرق

تأليف: هنري لورنس
ترجمة: بشير السباعي



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

— العدد: ٥٣٢

— المغامرُ والمستشرق

— هنري لورنس

— بشير السباعي

— الطبعة الأولى ٢٠٠٣

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا — الجزيرة — القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya st., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel: 7352396 Fax: 7358084 E.Mail: asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

7 كلمة من المترجم
	[١] الفارس دو لاسكاريس
9 وبدايات اللعبة الكبرى
49 [٢] لورانس في بلاد العرب
	[٣] مكانة لويس ماسينيون في سياسة فرنسا
129 حيال العالم الإسلامي خلال عهد الجمهورية الثالثة

كلمة من المترجم

يشتمل هذا الكتاب على ثلاث دراسات – مستقلة ومتداخلة في آن واحد – للمؤرخ الفرنسي البارز هنري لورنس نشرت بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٥.

وتتناول هذه الدراسات جوانب من التاريخ الكولونيالي للعالم العربي الحديث والمعاصر وتبرز دور المغامر والمستشرق في مجريات اللعبة الكبرى من أجل السيطرة على الشرق.

والدراسة الأولى مكرسة للفارس دو لاسكاريس (١٧٧٤-١٨١٧) الذي تبدأ مغامرته في مصر مع الحملة الفرنسية وتنتهي فيها في عصر محمد علي. وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة كاييه دو لوريان، العدد ٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية الكبرى.

أما الدراسة الثانية فهي مكرسة لتوماس ادوارد لورانس (١٨٨٨-١٩٣٥)، الشهير بلورانس العرب، والذي يرتبط اسمه تاريخياً بالثورة العربية ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ويعتبر المهندس الرئيسي للانتصار الإنجليزي على القوات التركية التي يقودها الضابط الألماني فالكنهاين (دمشق، ١٩١٨). وقد نشرت هذه الدراسة في كتاب مستقل، صدر عن دار نشر جاليمار الباريسية في أواخر عام ١٩٩٢.

وأما الدراسة الثالثة فهي مكرسة للمستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢)، الذي شارك في صياغة السياسة الفرنسية حيال العالم الإسلامي في عهد الجمهورية الثالثة. وتتوقف الدراسة عند عام ١٩٤٠ ولا تتناول مواقف ماسينيون بعد سقوط الجمهورية الثالثة. وقد نشرت هذه الدراسة في نشرة جمعية أصدقاء لويس ماسينيون، العدد ٢، يونيو/حزيران ١٩٩٥.

[١]

الفارس دو لاسكاريس
وبدايات اللعبة الكبرى

بالنسبة لمعاصري الثورة الفرنسية الكبرى، تُعدُّ بداياتُ التوسع الأوروبي في داخل أراضي العالم القديم مهمةً أهميةً الانقلابات السياسية التي تؤدي إلى دمار النظام القديم الأوروبي. والحال أن الحملة الفرنسية على مصر [١٧٩٨-١٨٠١] توحد السيرورتين وتجعلهما متداخلتين. ومنذ ذلك الحين، يمتد تنافس الدول الأوروبية من الدولة العثمانية إلى الهند، مثيراً لتساؤلٍ دائمٍ حول مستقبل بلدان الشرق. وتصبح السيطرة المباشرة على منطقةٍ ما مسألةً صعبةً، وذلك بسبب التعقيدات المحلية، وخصوصاً بسبب المعارضة القوية من جانب دول أخرى. ويتحول التوازن الأوروبي إلى توازن عالمي تديره أوروبا. وفي الشرق، يمر تنافس الدول بصراعات على النفوذ. وتبدأ اللعبة الكبرى التي سوف يتحدث عنها كيبيلنج في كيم.

والفاعلون في اللعبة الكبرى هم الدبلوماسيون، والمستشارون العسكريون والفنيون المرسلون في بعثات إلى الشرق، والمستشرقون في المتروبولات: فجميعهم يسعون - استناداً إلى معارفهم ونشاطاتهم - إلى تحديد ما سوف يكون عليه مستقبل الشرق، وفي المقام الأول مستقبل الدولة العثمانية: هل ستتجو وتبقى عبر القدرة على تجديد نفسها من خلال تبني صيغ الغرب أم ستسقط وتجعل من الدول الأوروبية وريثة لها أم ستخلي مكانها لدول قومية منبثقة من الجماعات البشرية التي تؤلفها والتي تشكل جزءاً من الزبائن السياسيين للدول العظمى؟

والحال أن هذه الإجابات، التي يمكن أن تجتمع فيما بينها، كانت قد صيغت بالفعل في تأملات مسئولين أوروبيين في أواخر القرن الثامن عشر. وقد صيغت مستقبلات مُعدَّة علمياً دون علم الجماعات السكانية الشرقية التي تحيا اللحظات الأخيرة لتقافة سياسية شرقية متجانسة. وتبدأ اللعبة الكبرى بتعدد أبعادها: الاقتصادي والسياسي والثقافي.

وهذا التكوين لدول جديدة ولأمم جديدة يفتن بعض الأوروبيين الذين يجدون في ذلك إمكانية أن يمارسوا في التاريخ دوراً، بل ودوراً ثورياً، لا يسع أوروبا أن تتيحه لهم. هكذا تظهر شخصية جديدة، هي شخصية المغامر الذي يريد - مكلفاً من متروبوله إلى

هذه الدرجة أو تلك – إعادة بناء شرق يشبه الغرب، مع وجود المغامر في توتر أبدي، يصعب التغلب عليه، بين ثقافتين وخاصة بين ولاتين. والمثل الأشهر لذلك هو ت. أ. لورانس.

ومن ثم فالمغامر شخصية أساسية في اللعبة الكبرى. وهو يحول هذه اللعبة إلى ساحة يتكشف فيها كل ما يمكن للخبرة البشرية أن تحمله من مجاوزة للحدود.

والأول، حسب الترتيب الزمني، بين هؤلاء المغامرين، هو الفارس دو لاسكاريس الذي تعلن حياته المحطمة بشكل رمزي قوي عن التعريفات التي سوف يأخذها الشرق العربي في الربع الأول من القرن العشرين، أي بعد مائة عام.

تيودور دو لاسكاريس ومصر

ولد تيودور دو لاسكاريس دو فنتيميل في عام ١٧٧٤ في بيمونت سردينيا. وتزعم عائلته الانحدار مباشرة من نسل الأباطرة البيزنطيين الذين يحملون اللقب نفسه. وهي عائلة وثيقة الارتباط بأخوية فرسان مالطة وتمنح الأخوية في القرن الثامن عشر أستاذاً أكبر. ويصبح تيودور بالطبع أحد فرسان مالطة في الزمن الذي تبدأ فيه الثورة الفرنسية الكبرى. وعندما يستولي بونابرت على

مالطة في عام ١٧٩٨، وهو في طريقه إلى مصر، يرفض الفارس الشاب محاربة الفرنسيين ويجد نفسه منخرطاً في العمل كمعماري في الإدارة الجديدة لمصر.

وفي عام الحملة الأول، سوف نجد أن وظيفته الرئيسية، وهي وظيفة معماري في الإدارة العامة، إنما تنحصر في تصنيف وتوزيع بيوت الممالك المصادرة. ولا تحتوي أرشيفات الحملة على آثار محسوسة لهذا النشاط. وأنه لأكثر من مرجح أن الفارس السابق يستفيد من هذه الفترة لكي يتعلم على الأقل العربية المنطوقة ولكي يتصل بمحاوريه الطبيعيين، الأقباط، الذين يتولون، تاريخياً، إدارة الشؤون المالية المصرية.

وحتى ينجح المغامر، لابد له من أن يكون متلاعباً بالآخرين: فلم يكن بوسع ت. أ. لورانس أن يتصرف إلا من خلال الأمير فيصل. ويجد لاسكاريس رجله في شخص المعلم يعقوب في زمن قيادة كليبر.

وقد ولد يعقوب في عام ١٧٤٥ في ملوي في صعيد مصر. وتلقى تعليماً قبطياً جيداً : معرفة للعربية المكتوبة، كتابة جيدة، أفكاراً جد رحية عن الحساب. ومن ثم فبوسعه أن يصبح كاتباً عند أمير مملوكي. ففي الزمن الذي يحكم فيه علي بك الكبير مصر

ويجعلها من الناحية العملية مستقلة عن الباب العالي (١٧٦٧-١٧٧٣)، يدخل يعقوب في خدمة سليمان بك ويصبح، بفضل قدراته، المباشر العام لهذا البيك الذي يحوز على شكل التزامٍ جزءاً كبيراً من إقليم أسيوط. وهو يقتفي مسيرة سيده الذي هو أحد الشخصيات الرئيسية في الأعوام الأخيرة للنظام الحاكم المملوكي الجديد. بل إنه يقاتل ضد العثمانيين في عام ١٧٨٧، عندما يحاول هؤلاء الأخيرون استعادة سلطتهم المباشرة في مصر. وفعل كهذا من جانب رجل من ملته ومهنته إنما يعد واقعا استثنائيا تماما.

وبلقبه كمعلم، يصعد إلى قمة المهنة التي يمكن أن يحلم بها قبطي في القرن الثامن عشر لكنه، كجميع المعلمين الآخرين، ينحاز إلى بونابرت في عام ١٧٩٨. وهو يتولى مسؤولية الشؤون المالية لصعيد مصر، وذلك بسبب ما يتميز به من كفاءة، وهو الأمر الذي يجد ترجمة له، بشكل ملموس أكثر في التو والحال، في توليه مسؤولية الشؤون المالية لجيش ديزيه الصغير الذي خرج لمطاردة مراد بك إلى ما وراء الشلال الأول. ويبدو أنه كان مفيدا جدا للفرنسيين الذين منحوه سيف شرف، وهو شكل التكريم الوحيد المعروف آنذاك في جيوش الجمهورية الفرنسية.

وهو يعود إلى القاهرة في أواخر عام ١٧٩٩ مع ديزيه، حيث كان بونابرت قد رحل بالفعل إلى فرنسا. ونحن نجهل تاريخ اللقاء بين المعماري والمباشر لكن ارتباطهما يتحقق بسرعة: ففيما عدا بعض الوثائق الإدارية، لا نجد ذكراً له إلا في مشاريع صادرة عن لاسكاريس.

ويدخل الارتباط الجديد حيز النشاط في اللحظة التي ينخرط فيها كليبر في سلفيات مفروضة على الأقباط، سعياً منه إلى تخفيف الأزمة المالية الدائمة التي يمر بها الجيش. ويلهم لاسكاريس الملة القبطية فكرة المطالبة بالحصول على صعيد مصر كالتزام، فهذا هو السبيل الوحيد للتمكن من استخلاص المواد الضرورية من أجل بقاء الجيش. واسم يعقوب موجود في عموم المشروع^(١). وعبر مبادرة كهذه، يتجاوز لاسكاريس إلى حد بعيد مهامه الرسمية. إنه ينخرط في السياسة مستخدماً مسيحي مصر كرافعة لهذا الانخراط.

وإذا كان مطلب الملة القبطية يظل دون استجابة، فإن لاسكاريس ويعقوب يحصلان على مسئوليات جديدة. إذ يصبح يعقوب أغا الملة القبطية. وفي أثر ذلك، يبدأ في تكوين فيلق قبطي في خدمة الفرنسيين. والحال أن هذا الفيلق سوف يصل تدريجياً إلى ثمانمائة رجل، الأمر الذي يجعل من يعقوب شخصية مهمة على المسرح السياسي. أما لاسكاريس، فهو يحصل على المسئولية عن

التلزيقات والرسوم المفروضة على المنقولات والمترتبة على التركات.

وفي ١٤ يونيو/ حزيران ١٨٠٠، يموت كليبر مقتولاً، ويحل محله مينو الذي يمثل الاتجاه «الاستعماري» في الجيش، وهو اتجاه أقلية ضئيلة بين الفرنسيين الذين تمني غالبيتهم العودة إلى أوروبا. ومن ثم يمكن للاسكاريس، «الاستعماري» منذ البداية، أن يلعب دور أعظم.

ومشروعه الأول الموجه إلى مينو لا يحمل تاريخاً لكن رد مينو يحمل تاريخ ١٠ يوليو/ تموز ١٨٠٠. ويتخذ الاسكاريس مظهر منظر استعمار مصر ويقترح «وسيلة بقائنا دائماً في مصر عبر مجرد صدمة التعصبات المتعارضة المميزة لسكانها». ومعتمداً على واقع أن مصر كانت دائماً «مهد التعصب»، يرى أنه إذا كان الدين الجمهوري لا يستطيع، في التو والحال، أن يجد أتباعاً له، بسبب بساطة ممارساته، فإنه بالقضاء على جميع أشكال التفرقة الدينية من خلال رفع «جميع الطوائف [الدينية] إلى درجة واحدة من النفوذ السياسي»، سوف يتسنى لتلك [الطوائف] التي عذبتها الإسلام وخط من شأنها أن تزدهر على حسابه إلى الدرجة التي تمكنها من الوصول إلى عدد مساوٍ من المشايخين. ومنذ تلك اللحظة، سوف يكون بوسع الفرنسيين أن يحكموا عبر «هذا التوازن

للتعصبات المتعارضة»، وفي المرحلة الثانية، سوف يصبح الأنصار الجدد للفلسفة المضادة عديدين بشكل متزايد باطراد إلى درجة تحويل المصريين «إلى طائفة واحدة وامتاثلة هي طائفة الفرنسيين». ومطبّق هذه السياسة الرائعة لا يمكن أن يكون غير القائد العام الذي، باجتذابه ثقة السكان، سوف يعمل على إعادة هذا البلد الشهير «إلى ما كان عليه في الأزمنة الماضية، مركزاً للوفرة وللمعارف ولتجارة العالم».

ونرى بوضوح، خلف المظهر الخيالي للمشروع، إتباع عين استراتيجية الفعل عن طريق الأقباط.

ويرد عليه مينو بأنه لا ينوي أن يكون زعيم طائفة وأن «ديانته العقلية الصغيرة» تكفيه^(٢).

ولا يفقد لاسكاريس الأمل، وفي ٢٥ ثيرميدور من العام الثامن (١٣ أغسطس/ آب ١٨٠٠)، يكتب من جديد إلى مينو. وهو يعترف بأنه يضع المشاريع كما يصنع الآخرون الفتوحات والأحذية وكما يضعون الدساتير والأطفال، الخ. وهذا المشروع الجديد الذي لا يمكنه أن يعود عليه إلا «بشهادة جنون يمنحني الجميع إياها بالفعل»، إنما يتمثل في بناء سد ضخّم عند رأس الدلتا وبناء عاصمة جديدة لمصر، هي مينوبوليس، التي سوف تكون نقطة

اللقاء بين منتجات أفريقيا ومنتجات البلدان التي تطل على البحر المتوسط، وستكون موقع الانصهار بين الغرب والشرق. وهنا نجد استشرافاً للقناطر الشهيرة التي شيدها محمد علي لتنظيم ري الدلتا.

الحزب المصري

والواقع أن المغامر يكشف، في بقية نصه، عن الهدف الحقيقي لمشروعه. إنه يدرس إمكانية تخلي فرنسا عن مصر إثر مساومة على الصلح العام: «في هذا الفرض، سوف يكون من المهم للغاية ترك حزب قوي، يمكنه البقاء هناك مسلحاً لكي يحافظ على نفوذنا السياسي والتجاري هناك، وأخيراً لكي يساند الفرنسيين فيما لو هاجموا [مصر] من جهة أخرى».

وتتلخص الفكرة في الاضطلاع في صعيد مصر بتوحيد جميع أعوان الفرنسيين مع ممالكك مراد بك الذي يعتبر، منذ معركة عين شمس، حليف الفرنسيين. كما أن هؤلاء الأعوان سوف يُبقون مراد بك في الحزب الفرنسي. وحتى يتم ذلك، يجب في التو والحال تعزيز القليل القبطي الذي يقوده يعقوب تعزيزاً ملحوظاً. لأن كل شيء، مرة أخرى، إنما يتوقف على يعقوب.

ولاسكاريس يُعرّفه وفقاً لموضحة بعث مصر التي هي الأيديولوجية الرسمية للحملة:

«إنه حفيد أولئك المصريين الذين مازالوا يثيرون دهشة العالم بأثارهم: يا لها من ذكريات تستحضرها هذه الآثار! باختصار، يا لها من حضارة تبوح بها هذه الأهرامات، هذه المعابد، هذه البحيرات، هذه القنوات، للشعوب التي تخيلتها!».»

ومن ثم يمكننا أن نرى في لاسكاريس واحداً من أسلاف النزعة الفرعونية السياسية التي عرفت أواخر القرن التاسع عشر.

ويرد عليه مينو بأنه ليست لديه أية ثقة في الأقباط. وعندئذ يواصل لاسكاريس مشروع القبطي بعد تعديله وذلك في رسالة إلى القائد العام مؤرخة في ٢٩ فبروكتيدور من العام الثامن (١٦ سبتمبر/أيلول ١٨٠٠). وهو يواصل الدفاع عن صديقه ويقترح هذه المرة إرساله، مع بعض الجنود الفرنسيين وخمسة آلاف أو ستة آلاف من المسيحيين الشرقيين إلى النوبة لإنشاء مستعمرة دائمة هناك ومربحة بالنسبة لفرنسا. فهناك سوف يكون للحزب المصري الممالي لفرنسا قاعدة راسخة في حالة جلاء الفرنسيين عن مصر وسوف يكون لاسكاريس هو مفوض الحكومة الفرنسية هناك، ومن ثم فإن عودة الفرنسيين سوف تكون سهلة.

والحال أن مينو، الذي يُكنّى له قدراً من التعاطف، يعينه، في الشهر نفسه، مديراً للرسوم الالتزامية. ويواصل لاسكاريس الأصرار على مشروعه النوبي ويرسل إلى بونابرت مرثية يعقوب، «إلى روح الجنرال ديزيه». وخلافاً لنص التقديم المنشور في الأمر اليومي، فإن المعجم المستخدم والإشارات الضمنية إلى العصر القديم الكلاسيكي إنما تسمح بما هو أكثر من افتراض أن كاتبها الحقيقي هو لاسكاريس:

«إلى الأبد ستحيا في الأجيال القادمة وفي عرفاني بالجميل، إن طيفك العزيز يرفرف بالفعل في رحابة الفضاء مع طيف أبطال العصر القديم، وهو يتحد بالفعل مع روح بونابرت الحارسة، ومن هذا الاتحاد الذي يحرك شديد رهبة الأعداء وشعوب الأرض سوف تولد رفاهية وتمدن الشرق».

وبالمثل، في مؤتمر فرساي، فيما يتعلق بأقوال فيصل، سوف يكون بالإمكان التساؤل عما قاله بالفعل وما أضافه ترجمانه ت. أ. لورانس. فكثيراً ما يتصرف المغامر كمحتال غشاش.

والحال أن موت مراد بك يسمح لاسكاريس بمعاودة الكلام عن مشروعه: ففي ٢٦ أبريل/ نيسان ١٨٠١، يقترح إرسال يعقوب إلى صعيد مصر للمصالحة بين الفصائل المملوكية المتنازعة، وهو

أمر من شأنه أن يسمح له بتوجيه نشاطاتها. ويعترف لاسكاريس بأنه يتكلم عن هذا الموضوع دون أن يتشاور فيه مع القبطي، ويعيد من جديد طرح فكرته عن الحزب الفرنسي في حالة الجلاء عن مصر.

وفي اليوم نفسه، تتم ترقية يعقوب إلى رتبة قائد لواء، بسبب الخدمات التي قدمها إلى الفرنسيين. وهو أول أجنبي يصعد إلى هذه الرتبة في جيوش الجمهورية. كما ينظم للجنرال بليار، قائد القاهرة، شبكة تجسس ويعتزم مد شبكته إلى سوريا.

وعلى أثر نزول الإنجليز والانتكاسات الفرنسية، يجد جزء من الجيش الفرنسي نفسه محاصراً بشكل تدريجي في القاهرة بينما ينسحب مينو إلى الإسكندرية. وبدلاً من الاستسلام للإنجليز، يفكر لاسكاريس ويعقوب وبعض الاستعماريين الآخرين ومن بينهم المستشرق جان جوزيف مارسيل في تحقيق هذا الانسحاب الشهير إلى النوبة والعزير على قلب الفارس المالطي السابق. وفي نهاية الأمر يفشلون ويشاركون في استسلام الجيش الفرنسي. وهذا الاستسلام ينص على رحيل المصريين الأكثر تورطاً مع الفرنسيين إلى فرنسا. ويحاول العثمانيون إقناع المعلم بالبقاء في خدمتهم، لكنه يرفض ذلك. ومن ثم فهو يركب، بصحبة لاسكاريس دائماً، السفينة

الإنجليزية لا بالأس، المكلفة بنقل المصريين إلى فرنسا، في ١٠ أغسطس/ آب ١٨٠١.

ومنذ إقلاع السفينة، يجري قبطانها، جوزيف إدموندز، لقاءات عديدة مع المعلم، حيث كان لاسكاريس يقوم بالترجمة. وسوف يلخص إدموندز لرؤسائه مناقشاته على النحو التالي:

«قال لي إنه يرى أن أية حكومة مهما كانت إنما تعتبر أفضل لبلاده من حكومة الأتراك؛ وإنه قد انضم إلى الفرنسيين بدافع من الرغبة الوطنية في تخفيف معاناة مواطنيه؛ [...] وإنه مازال يتطلع، بالاستعانة بالدول الأوروبية، إلى عمل الخير لبلاده وهو يتصور أن رحلته إلى فرنسا سوف تؤدي إلى هذه النتيجة. وقد دفعه الفرنسيون إلى تصور أن بلدهم يتمتع بقوة مهيمنة في أوروبا، وهو لا يكاد يعلم شيئاً عن قوة إنجلترا البحرية العظمى، على أنه يدرك أن رغبته في أن يرى مصر متمتعة بالاستقلال، هي رغبة محكوم عليها بالفشل، في غياب تأييد من جانب بريطانيا العظمى. وقد قال لي صديقه لاسكاريس [...] الذي تولى ترجمة كلامه في محادثتنا، إن الجنرال المعلم يعقوب هو رئيس بعثة حصلت على سلطات أو عينت من جانب أعيان مصر بهدف التفاوض مع دول أوروبا على استقلال هذا البلد»^(٣).

ويموت يعقوب بعد أيام قليلة من ركوب البحر، وقد جرى اتهام العثمانيين بأنهم قد دسوا السم له قبل رحيله.

ولا تخدم عزيمة لاسكاريس من جراء ذلك ويكتب مذكرة موجهة إلى الإنجليز يستعيد فيها الأفكار الرئيسية التي تم الإعراب عنها في المحادثة: على إنجلترا حماية مصر مستقلة تشترى المنتجات الإنجليزية، فهي ليست غير قوة زراعية. وسوف تكون الحكومة الجديدة سلطة مستقرة، تستند إلى سكان معترفين بالازدهار المستعاد. وسوف تتحرك في اتجاه استعادة الحضارة في مصر. ويقترح لاسكاريس إشراك «البعثة المصرية» في المفاوضات العامة التي لا بد وأن تنلوا انتهاء الأعمال الحربية للائتلاف الثاني.

ويشير مجمل الأفكار الرئيسية المبينة إلى أن واضعها هو الفارس المالطي السابق: فمعجمها هو معجم الاقتصاد السياسي لأواخر القرن الثامن عشر، ومفهوم التمدن [الحضارة] هو الذي قدم التبرير الأيديولوجي لعمل بونايرت في مصر. ومن الصعب للغاية معرفة ما كان بوسع يعقوب أن يفكر فيه بالفعل، والشيء المهم هو أنه للمرة الأولى يُعزى معجم سياسي غربي إلى أحد الشرقيين، وسوف يتعين الانتظار عشرين سنة حتى يستخدم محمد علي بدوره مفهوم التمدن.

ويأمل لاسكاريس في أن يبقى على اتصال بالإنجليز. والواقع أن تقرير القبطان إدموندز سوف يهجع لأكثر من قرن من الزمان في الأرشيفات الإنجليزية إلى اللحظة التي سوف يكشفه فيها جورج دوان وينشره.

رفض بونايرت

بما أن لاسكاريس قد فشل مع الإنجليز، فهو يتجه إلى الفرنسيين. وهو يجمع المنفيين المصريين في المحجر الصحي ويقدم إلى السلطات الفرنسية مشروعه عن البعثة المصرية. وهو يوقع المشروع باسم نمر أفندي. ويرسل عدة رسائل في فانديمير وبرومير من العام العاشر (أواخر سبتمبر/أيلول وأوائل نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٠١) لكنه لا يتلقى أي رد سياسي. ويُفاد باستلامها لكن القرار الوحيد المتخذ هو تكوين وحدة فرسان، هي الوحدة المسماة بقناصة الشرق، اعتماداً على المنفيين من مصر.

وعلى قائمة فرسان مالطة، يكتب بونايرت في ذلك الزمن:

«لاسكاريس، الأخوان: الأول مجنون والآخر رفض حمل السلاح ضد الجيش ودخل السجن»^(٤).

ومن المؤكد أن المجنون هو صاحبنا. وتتمه مسلكه لن تكذب هذا الرأي. وبما أنه قد ملّ من الانتظار في طولون، فقد ذهب إلى باريس ومعه توصيات من شخصيات مهمة في الحملة مثل استيف ومينو، وهو يحاول الحصول على موعد مع القنصل الأول [بونابرت]. ومن المرجح أنه قد فشل في ذلك.

وبين مشروعات لاسكاريس الجديدة، نجد استعادة لأفكاره عن مصر المستقلة ومطالبات بتملكات عائلته في مالطة وطلباً بتعيينه مفوضاً لفرنسا في جدة لتنظيم تجارة فرنسا في البحر الأحمر. بل إنه يقترح على تاليران في ١٤ فلوريال من العام العاشر (٤ مايو/ أيار ١٨٠٢) إعادة تكوين الإمبراطورية البيزنطية بكل بساطة لحساب حفيد الأباطرة لاسكاريس - أي لحسابه هو شخصياً: فهو يطالب بأن تحصل له فرنسا، بما يتعارض مع الحماية الممنوحة إلى الباب العالي، على أرض تمتد من تريبيزوند [طرابزون] إلى حدود جورجيا. وهذه الدولة الجديدة يمكن أن تكون قاعدة انطلاق لزحف جيش فرنسي إلى الهند.

ومن الواضح أن القنصل الأول لا يرد على هذا الاقتراح بالغ الشطط. إلا أنه يجب ملاحظة أن الاقتراح يندرج في تيار حرب الهيلينية المعروف في أواخر القرن الثامن عشر والذي لم يكن

بونابرت عديم الإحساس به خلال فتح إيطاليا. ثم إن لاسكاريس يتصرف دائماً باسم مسيحي الشرق.

وإقامته في فرنسا عبارة عن فشل تام. بل إنه قد فقد المنصب الرسمي الذي كان يحتله في مصر. وعندئذ تبدأ الفترة الأكثر إثارة للجدل في حياته.

العودة إلى الشرق والمشروع اللبناني

وهو يرجع إلى الشرق في تاريخ غير محدد. وهو متزوج. ووفقاً لميريون، وهو طبيب وصاحب مذكرات عن الليدي إيستر ستانهوب، فإن لاسكاريس قد قال لها إنه قد تزوج في مصر جارية جورجية، هي الست مريم، التي كانت ضمن حريم مراد بك^(٥). وقد زعم الفارس المالطي السابق أنها كانت بنت خالة سليمان، باشا عكا، خليفة أحمد باشا الجزائر الرهيب.

وهو لا يعاود الظهور في الوثائق إلا في عام ١٨٠٦. ورواية لاسكاريس التي نقلها ميريون تتحدث عن رحلة إلى جورجيا، مسقط رأس زوجته، حيث يجري الزعم بأنه كان يعتزم إنشاء استثمار زراعية. ويقال إنه قد اعتقل من جانب الروس بتهمة التجسس وسجن في سان بطرسبورغ. ثم يقال إنه جرى الإفراج

عنه بعد ذلك ثم استقر في حلب حيث كان في عام ١٨١١ مدرساً بإحدى المدارس ومعلماً للموسيقى^(٦).

وما يجعله ميريون، هو ما حدث في عام ١٨٠٦. ففي ذلك التاريخ يتواجد لاسكاريس في سوريا. وهو يصبح سكرتيراً لتايتبو، مسئول قنصلية فرنسا في صيدا التي أعيد افتتاحها للتو. وهو يظهر في رسالة من تايتبو إلى تاليران، بتاريخ ٢١ بريريال من العام الرابع عشر (١٠ يونيو/ حزيران ١٨٠٦) باعتباره مكلفاً ببعثة رسمية إلى القسطنطينية. ويبدو أنه لم يذهب إلى هناك^(٧).

وبما أنه قد استعاد بالكاد منصباً رسمياً، فإنه لا يستطيع الامتناع عن استئناف نشاطاته السياسية. وهو يحاول دائماً استخدام مسيحي الشرق: وهم الموارد هذه المرة. ووسيلة عمله الجديدة هي القس لويجي جوندولفي، العازري، رئيس المدرسة الاكليريكية في عنطورة وممثل البابا في جبل لبنان. والحال أن جوندولفي هو الوسيط بين الفرنسيين وأمرأء الجبل، وذلك بسبب نفوذه الكبير لدى الأمراء. وهدفه هو:

«إعادة ميناء بيروت إلى لبنان ومساعدة هذا الجبل على نزع نير باشا سوريا وفلسطين. ويجب على الأمير بشير، عبر رسالة موجهة إلى إمبراطورنا، أن يسارع إلى حمايته»^(٨).

ولحساب جوندولفي، يحرر لاسكاريس وجهة نظر سياسية حول جبل لبنان مؤرخة في ١٠ يونيو/ حزيران ١٨٠٦^(٩). وهو يزعم الكلام باسم الأمير بشير. ويعيد إلى الأذهان:

«تعلقهم [الأمراء] الكبير، وكذلك تعلق كل الشعب في عمومهم، بالأمة الفرنسية منذ زمن سحيق، وهو التعلق الذي برهنوا عليه في كثير من المناسبات، حيث أراق آلاف من الموارد دماءهم من أجلها، طالبين في مقابل ذلك الحماية من جانب بونابرت الخالد الذي جعل من القضاء على الاستبداد مبدأه».

والهدف واضح:

«إنه يتلخص في حماية سكان جبل لبنان، حلفاء فرنسا الأوفياء، من استبداد باشا عكا، وبالإمكان تحقيق هذا الهدف بطريقتين، الأولى هي أن تأخذ حكومة فرنسا لبنان تحت حمايتها المباشرة أو، إذا استحال ذلك، أن تعمل فرنسا على وضع لبنان تحت التبعية المباشرة للقسطنطينية، دون تدخل من جانب باشا عكا (...). والنقطة الثانية، الأكثر أهمية بكثير بالنسبة لفرنسا، هي إعادة ميناء بيروت إلى لبنان».

فبمجرد إعادة بيروت إلى لبنان، سوف يصبح هذا الميناء محور تجارة المشرق وقاعدة بحرية وعسكرية لفرنسا. وسكان لبنان لا ينتظرون غير وصول الفرنسيين حتى يهبوا إلى الثورة.

ويعرف لاسكاريس جيدا أنه في عام ١٧٩٩، خلال الحملة [الفرنسية] على بلاد الشام، خيب هؤلاء السكان أمل بونايرت ولم يتحركوا خلال حصار عكا. والواقع أنه يحمل المسؤولية عن ذلك للدروز الذين منعوا المسيحيين من التحالف مع الفرنسيين.

نابليون والشرق

يستفيد هذا المشروع الجديد من سياق ملائم. فقد كسب نابليون للتو معركة أوسترليتز في حين أن هزيمة الطرف الأغر تحيل إلى موقف عام ١٧٩٨: استحالة مهاجمة الجزر البريطانية مباشرة، ومن ثم التوجه نحو استراتيجية تستهدف طريق الهند. وتاليران في هذا الإطار نصير لتقسيم للدولة العثمانية.

والواقع أنه يرسل في العام نفسه، استفسارا إلى تاييتبو حول الدروز والموارنة^(١٠). وبما أنه غير مؤرخ للأسف، فإنه لا يسمح بمعرفة ما إذا كان مترتبا على مذكرة لاسكاريس وجوندولفي.

وعن السؤال الخاص بأهم أماكنهم من حيث قوتها وموقعها، يجيب تاييتبو:

«جونيه هي المكان الأهم لكي تكون مركز المسيحيين والموقع الذي يجب اختياره للانزال».

أما فيما يتعلق بمواقف السكان، فهو يؤكد: «إذا جاء جيش فرنسي إلى هذه الأنحاء، فسوف يهجر الدروز ممتلكاتهم ويرحلون إلى فارس، أما الموارد فإنهم، من باب المحبة، بل وأجرؤ على القول من باب العشق، سوف يتصدروننا، وسوف يفعل المتولية الشيء نفسه، ولكن من باب حساب المكاسب».

ويتعين أن ندرك جيدا أن نابوليون لا يتصور هذا الإنزال الشرقي إلا بوصفه بداية زحف على الهند. فهو ليست له غايات مباشرة في تلك الأراضي. وعيب مشروع لاسكاريس هو أنه يستثير معارضة مباشرة من جانب الباب العالي، وهو خطأ كلف الحملة الفرنسية على مصر الكثير.

والحال أن الباب العالي، في عام ١٨٠٦ هـ، يتقارب مع الإمبراطورية النابوليونية. وردا على الانفتاحات العثمانية، يستجيب نابوليون بتعيين سيباستيانى، في ٢ مايو/ أيار ١٨٠٦، سفيرا لدى القسطنطينية. وهكذا نكون بازاء عودة إلى سياسة فيرجان الخاصة بتعزيز الدولة العثمانية. والتعليمات الصادرة إلى السفير الجديد واضحة:

«إنني لا أريد اقتسام إمبراطورية القسطنطينية بالمرّة، وحتى لو عرضوا عليّ ثلاثة أرباعها، فإنني لا أريد ذلك بالمرّة. إنني

أريد تعزيز وتوطيد هذه الإمبراطورية العظمى واستخدامها على نحو ما هي عليه كقوة معارضة لروسيا»^(١١).

والنتيجة المباشرة لذلك هي دخول الدولة العثمانية الحـرب ضد روسيا في أواخر العام. أمّا إنجلترا التي تنضم إلى الروس، فهي تلقى هزيمتين متعاقبتين في مرمرة وفي مصر في عام ١٨٠٧.

ومن ثم يمكن لنابوليون استئناف مشروعه الخاص بالزحف على الهند، ولكن بالتعاون مع الباب العالي، هذه المرة. وجيش مارمون، المرابط في دالماسيا، مستعد لدعم العثمانيين في البلقان، بل هو مستعد في نهاية المطاف للمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. ويجري عقد اتصالات مباشرة مع فارس سعياً إلى الحصول على تصريح بمرور جيش فرنسي متجه إلى الهند.

ومذكرة هوتيريف، رئيس الشعبة السياسية بوزارة العلاقات الخارجية، تحدد بجلاء في عام ١٨٠٦ تفكير الإمبراطور:

«من وجهة نظر أكثر كمالاً عن هدف فرنسا النهائي، أقصد وجهة النظر التي تقدم منظورا لحملة في الهند، فإن مشروع الاقتسام، بعيداً عن أن يقدم تسهيلات لهذه الحملة، ليس من شأنه إلا أن يجعل تنفيذها أصعب. والواقع أن هذا المشروع يميل إلى أن

يطلق على آسيا جماعة سكانية محاربة و غاضبة سوف تؤدي محنها واستيائها إلى إشعال جديد في هذا البلد لجميع مشاعر التعصب، ولن يكون من شأن هذه المشاعر التي توجهها سياسة إنجلترا غير زيادة العراقيين أمام زحف الجيش المشترك»^(١٢).

وهذا لا يتناقض مع إرسال رسل إلى الشرق، مكلفين باستكشاف طريق الحملة المحتملة نحو الهند. لكن هدفهم تقني أساساً: فهو يتمثل في التعرف على العقبات الجغرافية والبشرية وخاصة على المواقع الحصينة. وفي هذه البعثات، لا يريد نيبوليون «حالماً أو أديباً أو مثيراً للاعتراضات». فهو يحتفظ بذكرى جد سيئة عن الوصف الخادع لتحصينات عكا والذي قدمه فولني، وهو الوصف الذي قاده إلى الاستخفاف بقوة الموقع. وتعريفه للجاسوس المثالي قاطع:

«إن ما أحتاج إليه هو مهندس جيد، عقل دقيق، نشيط، يستطيع أن يرى ويسمع ويراقب، يستطيع أن يزن الإيجابيات والسلبيات، ويكون أيضاً جندياً قادراً على تقدير قوة موقع من المواقع وجوانب ضعفه، ويعرف احتياجات جيش في حملة، ويرى ما إذا كان بالإمكان تلبيتها في الساحة وإلى أية درجة»^(١٣).

الإنجليز والوهابيون

والحال أن لاسكاريس، بالرغم من الجانب النبوي لمشروعه والذي يستشرف تطور لبنان، لا يمكن من ثم تصنيفه إلا في خانة الحالمين والأدباء. إنه يتمنى أن يكون في مركز اللعبة الكبرى، فيما هو لا يوجد في الواقع إلا في هامشها. وهذا فشل جديد.

ويبدو أنه في هذه اللحظة يفكر من جديد في الاتجاه إلى الإنجليز. وهذا على أية حال هو ما يؤكد الفونس جيس، قنصل فرنسا في طرابلس، لتاليران، في ٢٥ أغسطس/ آب ١٨٠٧^(١٤). كما أن القنصل يجد لدى لاسكاريس علامات جد واضحة على الاختلال العقلي ويتحدث عن احتمال إقامة عند الوهابيين. فلأول مرة، قد يفكر لاسكاريس في آخرين غير مسيحيي الشرق.

وهو يختفي من الوثائق على مدار عدة أعوام. ووفقا لميريون، يقال إنه كان مدرسا في إحدى المدارس في حلب. كما أنه يتنقل في المنطقة كبائع جوال. وفي عام ١٨١١، يرتاب قنصل فرنسا في صيدا في أنه عميل إنجليزي^(١٥). والأرجح أن تنقلاته الكثيرة قد حيرت كثيرين من الناس في أمره وذلك في الوقت الذي كان فيه عملاء فرنسيون وإنجليز حقيقيون يجوبون المنطقة، مع علاقات حميمة غالبا كالعلاقات بين الكولونيل بوتان والليدي ايستر ستانهوب.

والحال أن الاتصال بلاسكاريس هو أحد أول شواغل الليدي
ايستر ستانهوب، التي وصلت إلى سوريا في عام ١٨١٢. وهي
تكلف ميريون بالعثور عليه، وهو ما يتم في ٥ نوفمبر/ تشرين
الثاني في نيبك حيث كان لاسكاريس يقيم مع زوجته. وهي تتخذ
ترجمانا في رحلتها الأولى إلى بالميرا في يناير/ كانون الثاني
١٨١٣. وأهدافها أبعد من ذلك. وكما هو معروف، فهي تريد
الانخراط في سياسة عربية. فالعرب بالنسبة لها أحد مفاتيح طريق
الهند والوهابيون يفتنونها. وهي تعتقد أن بوسع لاسكاريس أن يكون
مفيدا لها. وهي توصي به لدى السلطات الإنجليزية: فهو بالرغم
من تقلباته وبفضل درايته التامة بالعربية، سوف يكون عميلا
استثنائيا: «ثم إن ذلك سوف يكون عملا إنسانيا حيا واحدا كان
رجلا عظيما»^(١٦).

وبالميرا جد مهمة بالنسبة لليدي ايستر ستانهوب. فهي تعتقد
أنه من خلالها سوف يتسنى لها الاتصال بالوهابيين. وهي تحلم بأن
تكون زنوبيا الثانية. وهذا الحلم يجد تشجيعا له في التيار المسيحي
البروتستانتي في أواخر القرن الثامن عشر والذي يتتبعه باجتماع
اليهود في الأرض المقدسة، كمرحلة ضرورية لتحقيق نهاية
الأزمة. والحال أن ريتشارد برازرز، أحد أصحاب الرؤى
هؤلاء، قد تنبأ لها بأنها «سوف تذهب يوما ما إلى القدس وسوف

تقود الشعب المختار، وبأنه عند وصولها إلى الأرض المقدسة، سوف تحدث في العالم تغيرات كبرى وبأنها سوف تقضي سبع سنوات في الصحراء»^(١٧).

ووفقاً لميريون، لم يزر لاسكاريس بالميرا قط^(١٨). والواقع أن لاسكاريس يواصل عمله كبائع جوال في قبيلة عنزة التي يتزعمها مهنا الفاضل. وعندما يرجع ميريون من بالميرا، في ٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٨١٣، يقدم إليه لاسكاريس حلياً مسيحياً، هو فتح الله «الذي لا بد أن درايته باللغة وبمهنة البائع الجوال مفيدة له»^(١٩).

ويظل لاسكاريس لبعض الوقت في صحبة ابنة أخت بت التي تدرك الانحطاط السيكولوجي للمغامر: «إنه يهتاج دائماً، لكنه لم يعد ولن يكون أبداً صالحاً لشيء»^(٢٠).

أزمير ومصر

في أواخر عام ١٨١٣، يهجر راعيته وأسرته ويرحل إلى أزمير. وهناك يتردد على الفرنسيين ويقدم نفسه باعتباره بونايرتياً متحمساً في عصر كانت الرياح قد بدأت تتحول فيه بوضوح لصالح نابوليون ... وهو يحصل على منصب مدرس في أزمير ويمكنه أن

يأمل في شيء من الاستقرار. وفي أبريل/ نيسان ١٨١٦، يلتقي من جديد في هذه المدينة باثنين من الرفاق الذين سبق له معرفتهم في مصر، منفين بعد الأيام المائة، هما سافاري، دوق دو روفيجو والجنرال لالمان. ويفكر الرجال الثلاثة في الاستقرار في هذا الثغر لكن القلاقل السياسية الدائمة في المنطقة تزعجهم. والحال أن دروفيتي، وهو في ذلك العصر قنصل سابق لفرنسا وواحد من الرجال الذين يثق فيهم محمد علي، إنما يسعى إلى تجنيد رجال ممن كانوا في مصر خلال زمن الحملة الفرنسية لحساب الباشا. وهو يتقرب إليهم. إلا أنه بما أن سافاري ولالمان قد اضطرا إلى التعهد للإنجليز بعدم الذهاب إلى مصر، فإن لاسكاريس يرحل بمفرده. وبعد إقامة قصيرة في سوريا، حيث يهرب من زوجته التي تبحث عنه، يصل إلى الإسكندرية.

وهو يأمل في أن يستغل علاقاته السورية لكي يقترح وساطة بين باشا مصر والوهابيين لكن الموقف العسكري مؤات للمصريين ولم يعد الوقت وقت الديبوماسية.

وينجح دروفيتي في الحصول على موافقة الباشا على تعيين لاسكاريس مربيا لابنه إسماعيل، الذي سوف يموت بعد ذلك ببضع سنوات في السودان. ومن المرجح أن لاسكاريس، في أواخر حياته، كان من الوارد أن يعتقد أنه، بفضل تلميذه، سوف يلعب

أخيراً دوراً على المسرح السياسي الشرقي. وهو يموت في أبريل/ نيسان ١٨١٧ في ظروف غامضة. ووفقاً لقتل فرنسا فإنه: «يُخشى من أن النفوذ الذي بدأ السيد دو فنتيميل في ممارسته على الباشا الشاب قد أثار القلق وأنه قد مات مسموماً»^(٢١).

مولد أسطورة

ومن ثم فحياة لاسكاريس حياة فاشلة. وموته في نهاية الأمر لا يترك غير صدى طفيف ودوره في التاريخ يمكن أن يبدو هيناً. لكن الأسطورة كما هي الحال غالباً مع المغامرين، سوف تؤدي تدريجياً إلى حجب الواقع.

والمسئول الرئيسي عن الأسطورة ليس أحداً آخر غير لامارئين. ففي عام ١٨٣٣، خلال رحلته إلى الشرق، كان بسبيله إلى أن يخيم في الجليل وهو يحلم بأن يبقى في هذه المناطق لكي ينتقل بين مصر والخليج الفارسي. وهو لا يتمكن من عمل ذلك بسبب مسؤولياته العائلية. وعندئذ يفيد ترجمانه، السيد مازوييه، بأن رجلاً قد قام بهذه الرحلة، هو السيد دو لاسكاريس إلا أن من المؤسف أن مذكراته عن الرحلة قد اختفت. والحال أن لاسكاريس هذا، ظل نابوليون، هو النتاج الأكمل لاستشراق عصر التنوير^(٢٢):

«لقد أدرك ما هو أكثر من ذلك: فقد أدرك أن أعظم عمل يمكن أن يحققه بطله قد لا يكون إعادة السلطة في أوروبا؛ (...) وقد استشعر أن آسيا تتيح مجالاً أوسع بكثير للطموح الإحيائي لبطل من الأبطال؛ وأنه هناك يجب أن يقوم بالفتح والتأسيس والإحياء معتمداً على جماهير أضخم مائة مرة؛ وأن الاستبداد، قصير العمر في أوروبا، سوف يكون طويلاً وأبدياً في آسيا؛ وأن الرجل العظيم الذي سوف يجلب التنظيم والوحدة إلى آسيا سوف يفعل ما هو أكثر بكثير مما فعله الإسكندر وأكثر بكثير مما لم يتسن لبونابرت عمله في فرنسا. ويبدو أن محارب [حملة] إيطاليا الشاب [بونابرت] والذي كان خياله مشرقاً كالشرق وغامضاً كالصحراء وعظيماً كالعالم، قد أجرى في هذا الصدد محادثات سرية مع السيد دو لاسكاريس، ووجهه بارقة من بوارق فكره صوب هذا الأفق الذي حدده له قدره»^(٢٣).

ومن ثم فلاسكاريس هو رجل نابوليون في الشرق. وعين تجسيد الحلم الشرقي.

ويكشف مازوييه للامارتين أن أحد رفاق لاسكاريس، وهو فتح الله الصغير، يحوز سرداً كاملاً لمغامرة لاسكاريس مكتوباً بالعربية، استناداً إلى يومياته، وهو مستعد لبيعه. ويهرع لامارتين إلى اغتنام الفرصة، فيشتري المخطوط ويطلب من مازوييه ترجمته

ويعيد كتابته بلغة أدبية أكثر، استعداداً لنشره في نهاية رحلته إلى الشرق.

ووفقاً للنص الذي نشره لامارتين، فقد تعرف فتح الله على لاسكاريس في أواخر عام ١٨٠٩ في حلب. وقد اتفق هذا الأخير معه على مساعدته في رحلاته من عام ١٨١٠ إلى عام ١٨١٣. ويكشف له لاسكاريس شيئاً فشيئاً أنه مكلف من نابوليون بتنظيم ثورة عربية كبرى لتسهيل مرور جيش فرنسي إلى الهند. ويجب عليه توحيد جميع القبائل العربية، من صحراء سوريا إلى حدود فارس. والسر صارخ الألوان وحافل بالتفاصيل عن معارك بين الوهابيين والأتراك والقبائل العربية. وفي نهاية الأمر، يتحد جميع العرب ويستعدون للزحف ضد الأتراك لكن انهيار الإمبراطورية النابوليونية يؤدي إلى هجر المشروع.

وتظهر في السرد شخصيات تاريخية معروفة مثل كورانسيه، قنصل فرنسا في بغداد ومؤلف أول تاريخ عن الوهابيين، والليدي إيستر ستانهوب التي تظهر هنا كخصم لاسكاريس، ومهنا، زعيم عنزة، وسعود نفسه وغيرهم. وقد ذهب لاسكاريس إلى أزمير لكي يتحادث مع رسولي نابوليون، سافاري واللمان.

وبفضل لامارتين، يصبح لاسكاريس ما حلم بأن يكونه: المغامر في مركز اللعبة الكبرى. وفي وقت كانت فيه الأسطورة

النابوليونية في أوجها، يصبح [لاسكاريس] أحد أبطالها الأكثر شهرة. وحكايته الأسطورية، التي حللها أوريان، سوف تلمهم مشاركين آخرين في اللعبة الكبرى مثل بالجريف أو بلنت. وسوف يتذكرها الفرنسيون في زمن الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى: إنهم سوف يقولون إن الإنجليز قد استمدوا فكرتهم عن الثورة العربية من ذكرى لاسكاريس !

وفي عام ١٨٤٤، يرتب لامارتين شراء المكتبة القومية للمخطوط إلى جانب مؤلفات أخرى لفتح الله^(٢٤).

مصادقية فتح الله

تتناهى رواية فتح الله تماماً مع مؤشرات المصادر الأخرى. وتواريخها تتعارض تماماً مع ما نعرفه مثلاً عن تحركات الليدي ايستر ستانهوب. ثم إن ميريون، أحد الشهود الأحياء، قد سارع في مؤلفاته إلى التشهير بالاحتفال.

وغداة ظهور كتاب لامارتين، يتجه المستشرق العظيم جول مول إلى تكليف فيلجانس فرينيل الموجود آنذاك في مصر وفي بلاد العرب بالتحقق من صحة رواية الأحداث. وينجز فرينيل المهمة الشاقة التي تتمثل في إعادة ترجمة جزء من النص إلى اللغة

العربية وتقديمه إلى الزعماء الوهابيين المحتجزين في مصر. ويفضح هؤلاء الزعماء استحالة وقوع أحداث تضمنها السرد والشخصيات الوهمية واختلاقات أحداث لم تحدث قط. ويرسل فرينيل النصل العربي للردود إلى مول الذي يودعه في المكتبة القومية. ولما كان مول لا يريد تكدير لامارتين، فإنه يفضل انتظار موت الشاعر والسياسي لكي ينشر ترجمة فرينيل الفرنسية في الجورنال آزياتيكي، في يناير/ كانون الثاني ١٨٧١، مصحوبة بسرد بالغ الإثارة لرحلة فرينيل إلى الحجاز.

والحال أن تحسب مول ونشر نصل فرينيل في مجلة لم يكن الجمهور الواسع يطلع عليها البتة، وفي سنة رهيبة تماماً، قد أديا إلى مرور التنفيذ دون أن يلحظه أحد تقريباً. وهكذا فإن الأسطورة المشوهة غالباً تنتقل من كتاب إلى آخر حتى أيامنا.

ومن المؤكد أن فتح الله قد عرف لاسكاريس، وميريون يذكر ذلك. كما نعرف أنه قد خدم، في السنوات التالية، عديدين من الرحالة الأوروبيين، خاصة الفرنسيين، ثم إنه كانت لديه محاولات للكتابة، ونحن نعرف ذلك من مخطوطات أخرى.

كما أن سياق ثلاثينيات القرن التاسع عشر بالغ الدلالة: إنه العصر الذي يفتح فيه إبراهيم باشا سوريا لحساب والده.

والأوروبيون، الذين يمرون ببقظة سافرة للقوميات، إنما يفسرون الأحداث من زاوية نزعة قومية عربية واستقلال عن الأتراك. والحال أن من الواضح أن سكان سوريا يجهلون بالكامل، في تلك اللحظة من تاريخهم، كل شعور عروبي. وبالمقابل، فإن أولئك المتصلين بالأوربيين، وأولهم إبراهيم باشا، يعرفون أن مثل هذه الأفكار تروق لمحادثيه هؤلاء الذين توجد حاجة سياسية إليهم.

وأعمال عملاء نابوليون الحقيقيين، الذين يستكشفون طريق الهند، كانت معروفة لدى الجميع. ولم يكن موت بوتان نموذجا للخطر^(٢٥).

أما محمد علي، في دعايته في فرنسا، فقد قدم نفسه بوصفه الخليفة المباشر لنابوليون في الشرق.

ومن ثم فليس من المستبعد أن فتح الله قد قام بتوليف هذه العناصر المختلفة، معتمدا على الأرجح أيضا على إفضاءات لاسكاريس الخاصة بمشاريعه الماضية والمستقبلية على حد سواء. ومع أن النص كان موجها إلى جمهور فرنسي، فمن المرجح أننا بازاء واحدة من أوائل الإشارات إلى الثورة العربية في الأدب العربي، ومن هنا الأهمية الاستراتيجية للنص.

ولعبة الذهاب والإياب هذه نفسها تتكرر في عام ١٩٢٤،
عندما يكشف جورج دوان عن مذكرة البعثة المصرية؛ فالأثر
التاريخي بالغ القوة: والمسألة ليست أكثر ولا أقل من ظهور موقف
مشابه للموقف في عام ١٩١٩، تشكيل وفد من أجل مؤتمر الصلح.
والشيء المهم يجيء من توقيع يعقوب: إنه أول مصري يتحدث عن
الأمة المصرية في نص مؤرخ تاريخياً. والواقع أننا لا نجد الفكرة
المصرية في عصر يعقوب.

وتشابه الموقف وقوة السابقة وواقع أنه قبلي إنما تجعل من
هذه الشخصية المنسية رائداً عظيماً. والأقباط إلى اليوم يتذكرون
هذا الدور الواقعي التأسيسي الذي يسمح بنسيان التعاون مع فرنسيي
الحملة. على أن بعض المصريين يطرحون على أنفسهم مسألة دور
لاسكاريس^(٢٦).

ومن ثم فإن لاسكاريس، عبر يعقوب وفتح الله، هو الذي أدخل
عند الشرقيين فكرة الاستقلال المصري والثورة العربية [ضد
الأتراك].

x
x x

ما هي أسباب كل هذه المشاريع الاستشراكية التي نجدتها عند
لاسكاريس والمحيطين به - قناطر الدلتا، فتح السودان، استقلال
مصر، الحماية الفرنسية على لبنان، الثورة العربية بل والمشروع
الصهيوني؟

إنها من نوعين. فأولا، في بداية القرن التاسع عشر كما بعد
قرن واحد فقط، تشارك الدولة العثمانية في حرب يمكن أن تسمى
عالمية (فالمعارك في جميع القارات وفي جميع المحيطات)،
والنتيجة أن مستقبلها يمكن أن يبدو مشكوكا فيه، ومن هنا توازي
التساؤلات بعد قرن. وثانيا، صاغ الفكر الأوروبي لعصر التنوير
شرقا لا يتماشى مع الشرق المباشر والمعاصر لكنه، مؤسسا على
تحليل علمي، ليس سوى مستقبله. وهذا أحد الشروط الضرورية
لوجود اللعبة الكبرى.

ولاسكاريس هو أحد أوائل من دخلوا ساحتها، وأول من ضاع
فيها جسدا وروحا، وهو، بحكم عين الاستشراقات التي يحملها، أول
من يهبها الحيوية في شكل أسطوري. وفي هذا، ليس له غير نظير
واحد غالبا ما قورن به: ت. أ. لورانس.

الحواشي

(١) جميع الاستشهادات غير المشار إلى مصدرها مأخوذة من الملف B.6 من أرشيفات فنان العسكرية.

(2) Auriant, *La vie du Chevalier Theodore Lascaris*, Paris, 1940, p.35.

فيما يتعلق بالتسلسل الزمني جيد المعقد لتقلات لاسكاريس، استخدمت مؤلفات أوريان مرشداً لي.

(٣) مجمل الملف نشره جورج دوران في عام ١٩٢٤ في القاهرة تحت عنوان:

L'Egypte independante, Le Projet de 1801.

مطبعة الـ I.F.A.O.

(4) Auriant, Op. Cit., p. 99.

(5) Alice Heneine, *Lady Esther Stanhope et Le Liban*, Beyrouth, 1983, I, p. 64.

يعد هذا الكتاب أساسياً، بالنسبة للجزء الثاني من حياة لاسكاريس: فهو يستخدم مصادر يشير إليها أوريان دون أن يستخدمها من الناحية العملية.

(6) Heneine, *Op. Cit.*, I, P. 66.

(7) Adel Ismail, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs a l'histoire du liban et des pays du Proche-Orient du XVII^e siècle à nos jours*, Beyrouth, 1979, T III, pp. 42-43.

(8) Adel Ismail, *Op. Cit.*, III, p. 45.

(٩) النص عند أوريان، *Op. Cit.*, pp. 110-113.

(10) Adel Ismail, *Op. Cit.*, III, pp. 49-52.

(11) Général Georges Spillmann, *Napoléon et L'Islam*, Paris, 1969, p. 190.

(12) Edouard Driault, *La politique orientale de Napoléon*, Paris, 1904, p. 390.

(13) Spillmann, *Op. Cit.*, p. 249.

من المؤسف أنه لا يقدم مراجع لهذه الاستشهادات.

(14) Heneine, *Op. Cit.*, I, pp. 61-62.

(15) Auriat, *Op. Cit.*, p. 117.

(16) Auriat, *Op. Cit.*, pp. 123-124.

(17) Heneine, *Op. Cit.*, I, p. 59.

(18) Heneine, *Op. Cit.*, I, p. 68.

(19) Heneine, *Op. Cit.*, I, p. 69.

(20) Auriant, *Op. Cit.*, p. 125.

(21) Edouard Driault, *La Formation de L'empire de Mohammed Aly, de L'Arabie au Soudan, 1814-1827*, Le Caire, 1927, p. 67.

(٢٢) حول هذه النظرة إلى الشرق من جانب التتوير و، بشكل خاص، حول أسطورة الرجل العظيم، انظر هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا، ترجمة بشير السباعي، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

(23) Lamartine, *Voyage en Orient*, reedition de L'édition de 1855, II, pp. 274-248. Edition Aujourd'hui, Les Introuvables.

(٢٤) يعد المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق لنشر وترجمة النص العربي، والمحرر هو السيد جوزيف شيلو. وسوف يكون هذا المشروع مفيدا لأنه سيسمح بتجنب الأخطاء الموجودة بالتأكيد من جراء الترجمة المزدوجة لطبعة لامارتين.

(٢٥) كان بوتان قد قتل في يوليو/ تموز أو أغسطس/ آب ١٨١٥ على أيدي العلويين. والحال أن الليدي ايستر ستانهوب التي كانت قد عقدت معه علاقات حميمة قد قررت الثأر له. وقد نجحت في عام ١٨١٦ في دفع سليمان باشا إلى تدابير قمعية استثنائية: لقد جرى تدمير قرية أو عدة قرى علوية وإعدام عدد من القرويين وسبي عدد من النساء في عام ١٨١٦.

(٢٦) خاصة شفيق غربال في: الجنرال يعقوب والفرانس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١، القاهرة، ١٩٣٢.

[٢]

لورانس في بلاد العرب

[49]

الفصل الأول

أصل بطل

«الرب يكره الخطيئة لكنه يحب الخاطئ»

هذه العبارة التي سوف تصدر عن أم ت. أ. لورانس في أواخر حياتها، بعد أكثر من عشرين عاماً من موت ابنها الشهير، اعتبرها كثيرون من كتاب سيرته واحداً من مفاتيح شخصية البطل. ومن المؤكد أن ساره لورانس، الابنة غير الشرعية، المنحدرة من وسط جد متواضع وإن كانت متعلمة، كانت لها مغامرة غير عادية إلى حد ما في نهاية القرن التاسع عشر هذه. فهذه المربية لأطفال بارونيت إيرلندي، هو توماس تشابمان، تقع في غرام مستخدمها، وهو شريف غير مرتاح إلى مناخ بيته الذي تتحكم فيه زوجة مترممة. ويقرر العاشقان الهرب إلى إنجلترا. وبما أن الزوجة ترفض الطلاق، فليس بوسعهما إضفاء الشرعية على حبهما.

وسوف يولد من هذا الارتباط خمسة أطفال، ثانيهم هو توماس ادوارد.

وتبدو شخصية الأب مسموحة. إلا أنه كان لابد له من قوة شخصية واضحة حتى يرضى بالسقوط الاجتماعي النسبي الذي مثله هجر زوجة واتخاذ لقب جديد، هو لورانس. وبما أنه من عائلة أرستقراطية، فإنه يحيا دائماً كشريف ولا يهتم البتة بالعمل لكي يدبر لنفسه موارد إضافية حتى وإن كان نمط معيشته يتدهور بشكل ملحوظ بعد هربه. ويجري تصويره عموماً على أنه شخص طيب ولطيف ربي أطفاله على احتقار المال.

ومن المؤكد أن الأم لها شخصية قوية. وبما أن ساره كانت عميقة الإيمان، فإنها لا تتحمل عبء لا شرعيتها المزدوجة. وحرصاً منها على تجنب نمائم الوسط المحيط بها، فإنها تحيا مع أسرتها حياة اجتماعية محدودة، أما تربية الصبيان الخمسة – بوب، ت. أ. ، وليام، فرانك وآنولد – فهي تتم بالأحرى في وسط مغلق على نفسه.

إلا أنه، في عام ١٨٩٦، بعد الترحال لعدة سنوات في ويلز وفي سكوتلنده وفي فرنسا، تستقر أسرة لورانس في أكسفورد سعياً إلى ضمان تعليم مناسب للأبناء.

لا جدال في أن طفولته سعيدة
وقد رباه أبواه تربية تعد في
أن واحد صارمة، خاصة في
الشان الديني، وليبرالية بالأحرى

بما أن لورانس طالب خارجي، فإنه يفلت من العالم الخاص
للدخليات الإنجليزية، حيث يتربى جزء كامل من النخبة البريطانية.
وهذا التلميذ الجيد ودارس العصر الهيليني الممتاز، سرعان ما
يهتم بالعصر الوسيط، حيث يقوم بجمع التحف الأركيولوجية لذلك
العصر. وفي أوائل القرن العشرين، تظهر الفضائل المفترضة
لفروسية العصر الوسيط، بحسب قواعد إضفاء الطابع المثالي،
بوصفها قيماً يجب التأسى بها من جانب المرشح لأن يصبح في
المستقبل شريفاً.

ولورانس أيضاً قارئ عظيم، مولع بالمؤلفات الخاصة بفن
الحرب، وهو في الوقت نفسه رياضي خبير يدهش رفاقه بمآثره
البدنية. وكما سوف يقول ذلك فيما بعد لليدل هارت، كاتب سيرته
المفضل، فقد أدرك أنذاك بالفعل أنه سوف يجترح «مآثر عظيمة»
وهو يتصرف بما يتمشى مع ذلك. ونحو العاشرة من عمره، يبدو
أن توماس ادوارد يعرف أنه ابن غير شرعي، لكنه لن يحسب كل
التقل السيكولوجي لذلك إلا خلال يفاعته خاصة.

وفي عام ١٩٠٦، في الثامنة عشرة من عمره، يقوم بسلسلة من الرحلات بالدراجة عبر فرنسا، لكي يزور القصور المنيعه. وفي العام نفسه، يبدأ دراساته الجامعية في كلية يسوع بأكسفورد ويتخصص في التاريخ وفي الأركيولوجيا. وولعه بأغاني البطولات يقوده إلى توسيع ثقافته بحيث تشمل تاريخ العالم العربي، وذلك بفضل قراءة منتبهة لكاتبين سوف يكونان مهمين في تكوينه الفكري: من جهة، بلنت، الذي ترجم للتو مع زوجته القصائد قبل الإسلامية المسماة بـ«المعلقات» ومن جهة أخرى، شاعر ورحالة في جزيرة العرب، هو دوغتي. وكانت أطروحة بلنت هي أن الفروسية في الغرب قد استمدت أصلها، بالنسبة لقيمها الأساسية على الأقل، كالترحل والحب الغزلي، من نمط حياة العرب الأوائل. كما أن دوغتي قد شدد، هو أيضا، على تفوقهم في هذا المجال. وبعد الحرب، سوف يعقد لورانس علاقات شخصية مع هذين الكاتبين، اللذين سوف يثني عليهما دائما (خاصة دوغتي).

لورانس يختار كموضوع لأطروحته
«تأثير الحروب الصليبية على العمارة
العسكرية الأوروبية حتى أواخر
القرن الثاني عشر».

خلال صيف ١٩٠٩، يطوف بسوريا سيرا على قدميه لكي يجمع وثائقه. وهو يقيم عند السكان المحليين أو، عندما يستطيع

ذلك، يستفيد من ضيافة الإرساليات البروتستانتية الأمريكية. وتصبح حياته عرضة للخطر عدة مرات في غارات لقطاع الطرق لكنه يستفيد تماماً من هذه الحياة المغامرة والمثيرة للحماسة.

وبفضل عمله، يحصل على منحة لمواصلة بحوثه بينما، في عام ١٩١٠، يحدث لقاءه المهم مع هوجارت. والحال أن عالم الآثار هذا، الشهير برواياته لرحلته إلى الشرق، كان قد عين للتو أميناً للمتحف الأشمولي بأكسفورد وكان قد حصل بالأخص على تصريح من السلطات العثمانية بالتنقيب في موقع مدينة كرشميش الحثية، في جيرابلوس على نهر الفرات، لحساب المتحف البريطاني. وبما أن هوجارت لم يكن بوسعه التواجد في الساحة بصفة دائمة، فإنه يجند شباناً للعمل في موقع التنقيب. والحال أن لورانس الذي يتحين آنذاك فرصة للعودة إلى سوريا، يتصل بعالم الآثار ويعرض عليه خدماته. ويتم قبوله بشرط أن يواصل بشكل مواز بحوثه حول عمارة العصر الوسيط. وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٠، يرحل توماس ادوارد من جديد إلى سوريا حيث سوف يبقى الجزء الأعظم من السنوات الأربع التالية، باستثناء بضع إقامات قصيرة في إنجلترا مع أسرته وفترة تدريب لإجادة أعمال التنقيب في مصر، تحت إشراف فليندرز بتري. وفي ذلك العصر، كانت آسيا العربية جزءاً من الدولة العثمانية، بينما كانت مصر في واقع الأمر محمية بريطانية.

وكقائد في المرتبة الثانية لموقع التتقيب مع زميل أكبر سنًا بالكاد، هو ليونارد وولي، يبدي لورانس خصلاً واضحاً كمنظم وكسائس للرجال. وهو يعشق الاختلاط بالسكان المحليين ولا يتردد في ارتداء الملابس العربية. ويرتبط بعلاقات صداقة مع العمال، خاصة مع شاب، هو داهوم، الذي سوف يرمز عنده فيما بعد إلى تعلقه بالعالم العربي. على أن الموقع يوجد على مقربة من أعمال بناء جسر على نهر الفرات لسكة حديد بغداد، محور تغلغل الألمان الاقتصادي في آسيا العثمانية. ويصطدم علماء الآثار اصطداماً عنيفاً بالمهندسين الذين ينافسونهم في تجنيد اليد العاملة ويغامرون خاصة بتدمير ساحات التتقيب. والنتائج قليلة الإثارة، لكنها مهمة من الناحية العلمية. ويلعب لورانس الشاب دوراً كبيراً في جرد وتصنيف المكتشفات، خاصة بالنسبة للسيراميك والنحت والنقوش التي يودعها بالمتحف الأشمولي.

في أعوام ١٩٠٩ - ١٩١٤ يصوغ

رؤيته للعالم العربي

تتزامن الإقامة الأولى للورانس البالغ آنذاك واحداً وعشرين عاماً، في الشرق، مع نهاية ثورة «تركيا الفتاة» التي تحمل إلى السلطة جماعة كاملة من العسكريين والمدنيين العازمين على

تحويل الدولة العثمانية إلى دولة حديثة، تتبنى أحدث منجزات الحضارة الغربية. كما أنه يتعرف على موظف «جد متمدن - فرانكوفوني - من أتباع هربرت سبنسر - ماسوني - محمدي - من أنصار تركيا الفتاة»! وهو يفتن حيال عمل المبشرين الأمريكيين الذين ينشرون تعليماً حديثاً وانجلوفونياً في كل سوريا والذين، وفقاً للبعض، يدين لهم المرء بالإصلاح الدستوري في الدولة العثمانية. وفي الجليل، يعجب أيما إعجاب بعمل الرواد الصهيونيين، الذين هم بسبيلهم إلى تحويل فلسطين.

ويبدو لورانس بالأحرى متحمساً حيال التقدّمات الجارية. إلا أنه سرعان ما يغير رأيه، مدركاً لوجود هوية عربية حقيقية، وهو ما يقوده إلى اعتبار التأثير الغربي، خاصة الفرنسي، مفسداً. وفي عام ١٩١١، يكتب رسالة مغلقة من التوقيع وتوبيخية إلى التايمز، يتهم فيها حكومة «تركيا الفتاة» بالرغبة في تدمير آثار الماضي، علامة التخلف، لكي تحل محلها مدناً عمالية، رمز التوير في الشرق.

وتعلمه للعربية تدريجي. والواقع أنه على مدار حياته لن يتكلم غير لهجة سورية فراتية، ممزوجة بصيغ بدوية. ولن يهتم أبداً بأن يكفل لنفسه معرفة نحوية حقيقية باللغة. وفي عام ١٩١٢، يجد أن المصريين كئيبين وقذرين بشكل فظيع، حيث لا يملكون بالمرّة

روح ورقة «إناسه» الفراتيين. وفي عام ١٩١٣، يسعد لنشوب الحرب البلقانية الأولى التي سوف يكون بوسعها انهاء «نظام حكم الأتراك الغبي بشكل ميئوس منه». وهو يعتقد أن اختفاء هذا النظام سوف يتيح فرصة للعرب الذين أثبتوا، في الماضي، أنهم قادرون على حكم صالح.

ومفتاح هذا الموقف موجود في كتابه الرئيسي، أعمدة الحكمة السبعة، الذي كتب بعد ذلك ببضع سنوات، وهو في هذا الكتاب يقارن علاقات الإنجليز والفرنسيين بالعرب، حيث يعتقد الإنجليز والفرنسيون سواء بسواء أنهم الخلاصة البشرية. ويرى الإنجليزي أن من الكفر أو انعدام الأدب أن يحاول العربي تقليده، لأن الرب لم يمنح العربي فرصة أن يكون إنجليزيا. والأفضل أن يبقى عربيا، لكي يكون مثلا صالحا لجنسه. وعلى الضد من ذلك، يشجع الفرنسي الشعب الخاضع على تقليده، وحتى إذا لم يصل البتة إلى مستواه، فإن قيمته سوف تكون أعظم بحيث إنه سوف يقترب منه كثيرا: «نحن نرى في التقليد محاكاة تدعو إلى السخرية؛ بينما يورى فيه الفرنسيون ثناء و عرفانا». كذلك، في الشرق، لا يكف ت. أ. لورانس عن لوم مسيحيي الشرق، هؤلاء «الشوام» الفاسدين الذين تبدو كوزمبوليتية بيروت المعلنة رمزا لهم. ودون أن يكون معاديا للفرنسيين، كما جرى اتهامه بذلك غالبا، فإنه يرفض بالكامل

«فرنسا الشام» هذه، عمل المبشرين الكاثوليك الذين ينشرون الثقافة الفرنسية المسيحية في المناطق الساحلية لسوريا.

ومستعيدا آراء عصره، يفسر تعارض العرب/ الأوروبيين بوصفه تعارضا بين ساميين وآريين. وبوصفه بريطانيا صالحا، فإنه لا يقدر غير الأجناس النقية، وبالنسبة له، فإن العربي الحقيقي هو عربي المناطق الداخلية. وكلما اقترب المرء من البداوة، كلما وجد هوية السامي. وهو يتقاسم الأفكار التي روجها في الماضي رينان والتي تذهب إلى أن السامية تجد تعريفها بالدرجة الأولى في غياب الظلال والشكوك، في فكر لا يستريح إلا فيما هو متطرف، وفي مخيلة حية لكنها غير خلاقة. وهو يستنتج: «إن أعظم صناعة لدى العرب هي صناعة المعتقدات الإيمانية»، والزهد، واحتقار العالم الدنيوي بما يستتبع العراء، والنسك والفقر، باختصار، الحالة المثالية. على أن لورانس يعتقد أن العرب مستعدون لكل شيء من أجل الدفاع عن فكرة توحدهم. وبالنسبة لعالم الآثار الشاب، فإن التعارض كامل مع الجنس التركي، البليد، عديم الخيال والميال إلى العسف والجور. ومنذ ذلك الحين، يبدو العرب له مستعدين لأن يصبحوا قوة فتية، تتجاوز الأتراك من حيث العدد كما من حيث الخصال الفكرية.

في مستهل عام ١٩١٤، يعمل ت. أ. لورانس

لحساب جمعية صندوق الاستكشاف

الفلسطيني

ويتعين عليه المشاركة في الرفع الأركيولوجي والخرائطي للمناطق الحدودية بين مصر وفلسطين. وسرعان ما يدرك لورانس أن هذا العمل، الذي يقوده الكابتن نيوكومب، هو قبل كل شيء عملية استخباراتية لحساب العسكريين البريطانيين. ويبدو له ذلك طبيعياً بل ويستمتع به بالأحرى.

والواقع، منذ عام ١٨٨٢، أن مصر، مع بقائها من الناحية الاسمية تحت السيادة العثمانية، هي بلد محتل من جانب البريطانيين، الذين يسيطرون على الإدارة من خلال مستشارين معينين في مناصب رئيسية في جهاز الدولة. أما فيما يتعلق بشبه جزيرة سيناء، فهي ذات وضعية ملتبسة، إلا أنه ما دامت هناك مصاعب اتصال في الولايات العربية العثمانية، فلا يمكن أن تكون هناك تهديدات حقيقية لأول قوة بحرية في العالم. على أن الموقف يتطور بسرعة بالغة.

إن أعمال بناء سكة حديد بغداد سوف تسمح بربط الشبكة الأناضولية بشبكة سوريا الشمالية. ثم إن الحكومة العثمانية تدشن

سكة حديد الحجاز لكي تربط المدينتين المقدستين في شبه الجزيرة العربية بسوريا. وفي عام ١٩٠٦، يحاول العثمانيون العمل على أن يمر هذا الخط بالعقبة، على مقربة من الحدود المصرية. وتتلو ذلك مواجهة وحشية مع البريطانيين الذين ينزعجون لرؤية الأتراك، حلفاء الألمان، حائزين لإمكانية أن يرسلوا على وجه السرعة جيشاً مهماً على مقربة من مصر. وأزمة عام ١٩٠٦ تسمح للندن بفرض حدود مصرية - فلسطينية، إلى أبعد مسافة ممكنة شمالاً، وبإبعاد سكة حديد الحجاز عن هذه الحدود. لكن الإنجليز يلتزمون الحذر: ففي الأعوام التالية، تصوغ الأركان العامة سياسة يجب اتباعها في حالة نشوب حرب مع الدولة العثمانية: مهاجمة قواتها من الخلف في فلسطين عبر إنزال بين حيفا والاسكندرونة وإثارة انتفاضة عربية تشل النشاطات العسكرية العثمانية.

وفي عام ١٩١١، بينما تتوتر العلاقات بين الأتراك والعرب، يصبح كتشنر معتمداً بريطانياً في مصر. وبطل الإمبراطورية هذا ذو رؤية أكثر هجومية، وهو يدع جواسيسه يكثرون من الصلات مع الشخصيات السياسية العربية ويشجع نشاط اللبنانيين - السوريين المقيمين في مصر، والذين يتعاونون بشكل بالغ الفعالية مع البريطانيين.

على أن مشاريع كتشنر تكبحها لندن، المحتاجة إلى أن يظل الأسطول الفرنسي حليفها في تنافس مع ألمانيا. وفي أواخر عام ١٩١٢، فإن فرنسا، ذات الأطماع في سوريا، تحصل على اعتراف من الحكومة البريطانية بصدارة نفوذها في تلك المنطقة (فيما عدا فلسطين).

ومع أن لورانس ورفاقه يحوزون تصاريح رسمية من أجل حملتهم الأركيولوجية، إلا أنهم يصطدمون بالعداوة المفهومة من جانب المسؤولين العثمانيين في المنطقة. وفي العقبة، وهي نقطة استراتيجية على البحر الأحمر، يضطرون إلى اللجوء إلى القوة للقيام بعمليات الرفع. ويستفيد الكابتن نيوكومب من عالم الآثار الشاب - وهو ليس مغفلاً - لجمع الحد الأقصى من المعلومات حول درجة إنجاز أعمال سكة حديد بغداد في منطقة الفرات.

وبعد هذه الحملة، يرجع لورانس إلى جيرابلوس، ثم يأخذ بضع عطلات في إنجلترا، مكرسة لوضع أعماله حول سيناء في شكلها النهائي. وعندئذ تنشب الحرب العالمية الأولى.

الفصل الثاني عمل الاستخبارات

كجميع الشبان من جيله ومن وسطه الاجتماعي، يسعى ت. أ. لورانس على الفور إلى الانخراط في الجيش البريطاني، لكن كتنشر يطلب سرعة نشر التقرير الأركيولوجي الخاص بسيناء سعياً إلى إيهام الأتراك بأن الحملة لم يكن لها غير غاية علمية خالصة. على أن لورانس، مع دخول العثمانيين الحرب إلى جانب الألمان في أواخر أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٤، يتمكن أخيراً من الانخراط في الجيش.

يجري إرساله إلى مصر مكلفاً بالدرجة الأولى
بتدقيق مجموعة خرائط لسيناء وسوريا

منذ ما قبل بداية العمليات الحربية، كان البريطانيون قد بدأوا في تطبيق الخطط الموضوعة سلفاً. وفيما يتعلق بمشروع الثورة

العربية، فإنهم يدخلون في اتصال مع مندوبي الجمعيات القومية المقيمين في مصر كما مع شخصيات مختلفة. ويتعين العمل بسرعة، لأن العثمانيين يعلنون الجهاد - كابوس الاستعماريين منذ أواخر القرن التاسع عشر - ضد الدولتين العظيمين اللتين تحتلان بلاداً مسلمة وهما إنجلترا وفرنسا. وفي كل مكان، يجري حشد المسؤولين الدينيين، الذين يقررون علناً عدم جواز إعلان سلطان القسطنطينية للجهاد: والحجة التي يجري التذرع بها عموماً هي أنه بما أن السلطان ليس عربياً من قبيلة النبي، فليس بوسعه المطالبة بالخلافة وأن ادعاءه التصرف بوصفه خليفة هو من أكثر الأمور تعسفاً. وواقع أن أمير مكة، المسمى عموماً بال الشريف (حفيد النبي والمنتمي إلى قبيلة الهاشميين)، حسيناً، يرفض إعلان الجهاد، هو واقع يرصده المسؤولون الاستعماريون باهتمام، وذلك بقدر ما أن كتشنر والسكرتير الشرقي ستورز قد دخلا في اتصال مع ابنه الأكبر عبد الله، في مستهل عام ١٩١٤.

وكان عبد الله قد جس آنذاك نبض السلطات الإنجليزية فيما يتعلق بالحصول على دعم سياسي وعسكري في حالة نشوب انتفاضة في الحجاز (المجال الجغرافي الذي يسيطر عليه والده) ضد العثمانيين. لكنه لم يحصل إلا على رد مراوغ، بيد أن البريطانيين قد وجدوا في مقترحاته إغراءً كبيراً. والحال أن كتشنر، وزير الحربية منذ أغسطس/ آب ١٩١٤، مهتم جداً

بالمشروع العربي: فهو ينجح في تعيين شخصية جـد ممسوحة، السير هنري مكماهون، خلفاً له في القاهرة، وذلك سعياً إلى مواصلة الإشراف على الشؤون العربية، ويختار في لندن برلمانياً شاباً متخصصاً في الشرق، هو السير مارك سايكس، لتمثيله في اللجان الحكومية.

لورانس يحصل على مهمة أوسع،
جمع وتنظيم معلومات عن الجيش العثماني
والحركات السياسية العربية

في غضون بضعة شهور، يكتسب لورانس معرفة موسوعية حول الوضع العسكري والسياسي للإمبراطورية التركية. وبالرغم من موقفه المضاد للاتباعية إلى حد بعيد - زي عسكري مهمل، احترام قليل للانضباط العسكري - إلا أنه يصبح شخصية تحظى ببالغ التقدير في الوسط الصغير الذي يقوده ستورز في القاهرة، وهو عبارة عن مجموعة من العسكريين والجامعيين والديبلوماسيين والبرلمانيين، المتخصصين الهواة إلى هذه الدرجة أو تلك في الشؤون العربية. ومستفيداً من شعبيته، يحاول لورانس، عبر تقاريره كخبير، التأثير على اتخاذ القرارات. وهكذا يحدث على إنزال في الاسكندرونه يكون بمثابة «إشارة» لبدء انتفاضة عربية، لكن هذا

الاقتراح يلقى الرفض بسبب الأولوية المعطاة في عام ١٩١٥ لعملية الدردنيل، التي كان عليها أن تقود إلى استسلام سريع من جانب العثمانيين. وسوف تكون تلك العملية فشلا داميا للفرنسيين وللإنجليز.

وشأنه في ذلك شأن غالبية أعضاء جماعة القاهرة، يرى لورانس أن العدو في سوريا هو فرنسا وليس تركيا. وهو واحد من «الشرقيين» [Easterners] الذين يعتقدون أن بريطانيا العظمى يجب أن تكون المستفيد الرئيسي من انهيار الدولة العثمانية.

والحال أن الإنجليز، المضطرين إلى مراعاة المصالح الفرنسية، يستأنفون الاتصال، عبر السودان، مع الشريف حسين. وبسبب انزعاجهم من الجامعة الإسلامية العثمانية، أصبح الحلفاء مستعدين للاعتراف لحسين بخلافة عربية يقتصر مجالها الزمني [الدنيوي] على الحجاز، الأمر الذي من شأنه أن يكفل سكينه مسلمي الإمبراطوريتين الأوربيتين. لكن الشريف يطالب أيضا باستقلال البلدان العربية الممتدة من الأناضول إلى الحدود الفارسية، ومن المحيط الهندي إلى البحر الأحمر وإلى البحر المتوسط، لتشكيل خلافة مترامية الأطراف، بينما تحصل إنجلترا على وضعية سياسية واقتصادية وعسكرية متميزة في هذه الدولة الجديدة.

وبوصفه أخصائيا شهيرا بالفعل، يحرر لورانس في الأشهر الأولى لعام ١٩١٥ مذكرة حول سوريا. ومستعيدا الأفكار المشتركة بين معاصريه، يؤكد أنه من بين مدن سوريا الطبيعية الست الكبرى لا بد من استبعاد مدينتي - القدس وبيروت، المعتبرتين جد كوزموبوليتيتين بحيث يصعب اعتبارهما عربييتين: فالقدس ليست غير نوع من فندق واسع لزائرين عابرين، وبيروت مدينة هجينة، بلغتها الفرنسية ومينائها اليوناني وجامعتها الأمريكية ورأيها العام الذي يمثله التجار المسيحيون، «وكلهم سمان».

وفي المقابل، تعتبر مدن الداخل الكبرى الأربع - دمشق، حمص، حماة وحلب - عربية وهي تعتبر نفسها عربية. ثم إن دمشق هي مفتاح سوريا ومركز المعارضة العربية. وبالرغم من وجود نوع من الوطنية المشتركة القائمة على استخدام لغة مشتركة وذكرى ماضٍ مجيد، إلا أن السكان غير متجانسين إلى حد بعيد بحيث يصعب أن يؤسسوا بأنفسهم أمة حقيقية. ومن ثم فوحدها سلطة غير سورية الأصل، لكنها سنية وناطقة بالعربية، هي التي يمكنها العمل على إحياء مجد العباسيين والأيوبيين الغابرين. وهذا ينطبق بوضوح على العائلة الهاشمية في مكة ... وفي تقارير أخرى، يبين لورانس أيضا أن موقف الشريف هو موقف جميع القوميين العرب السوريين وأن هؤلاء الأخيرين يعترفون بسلطته بفضل الاتصالات المعقودة مع الجمعيات السرية.

مذكرة من ليس بعد غير ليوثنانت
بسيط سوف تترتب عليها نتائج مقيمة

وهكذا يستخدم مكماهون صيغ لورانس في مفاوضاته مع
حسين. وفي ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥، يكتب المعتمد
البريطاني إلى الشريف أن «أجزاء سوريا الممتدة إلى الغرب من
مدن دمشق وحمص وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية
بصورة خالصة ويجب استبعادها من الأراضي المطالب بها». وهو
بيدي التحفظ العام الخاص بضرورة مراعاة مصالح فرنسا ولا
يذكر فلسطين التي يعتبرها هي أيضا جد كوزموبوليتية، بسبب
الأماكن المقدسة فيها. والواقع أن جماعة القاهرة، في عام ١٩١٥
هذا، تعتقد أن مستقبل هذه الأرض إنما يكمن في دمجها بمصر
تحت الحماية البريطانية. أما فيما يتعلق بولايتي بلاد الرافدين،
بغداد والبصرة، والواقعيتين في منطقة نشاطات إدارة الهند
البريطانية، فيشير مكماهون إلى ضرورة اتخاذ ترتيبات خاصة
لازمة للدفاع عن حقوق بريطانيا المقررة منذ زمن بعيد في هذه
المناطق.

ولا يجب التقليل من أهمية موقف ت. أ. لورانس في
مفاوضات عام ١٩١٥. ومن المؤكد أنه يلعب ما يزال دورا ثانويا
وحملته من أجل إنزال في الاسكندرونة تبدو معادية للفرنسيين

بشكل واضح بحيث يصعب أخذها في الحسبان، وذلك بقدر ما أن سوريا يجب أن تعود إلى فرنسا بموجب اتفاق عام ١٩١٢، وبعيد الدردنيل، يدرس البريطانيون بالفعل عملية من هذا النوع، لكن تحفظات فرنسا جد قوية وذكريات الهزيمة في المضائق جد مبرحة. وفي الأعوام التالية، سوف تكون فرنسا هي المدافعة عن ملف مشروع كهذا، حيث يصل بها الأمر إلى حد تصور الاعتماد، إذا لزم ذلك، على قوات يابانية، لكن الإنجليز سوف يكونون آنذاك معارضين لذلك، بسبب مركز القوة الذي كسبوه في الساحة. وفي المقابل، في المسألة العربية، يجري أخذ أفكار لورانس في الاعتبار؛ فهو يعرف اللغة والبلد ويستوعب الموضوع تماما بسبب عمله الدائم في تنظيم المعلومات التي تتدفق على القاهرة. على أن مفهومه جد البريطاني لـ«العروبة» يظل غير مفهوم بالنسبة لمحاورية العرب، الأمر الذي يعطي لمراسلات حسين - مكماهون، بالنسبة للهاشميين، معنى جد مختلف. فبالنسبة للأشراف، ينحدر جميع عرب آسيا، أكانوا مسيحيين أم مسلمين، من جد مشترك ولا يمكن أن يكون هناك حديث عن اختلاف بين «العرب» و«المعربين». ويرد حسين على مكماهون بأنه لا يفهم مغزى خط دمشق - حمص - حماة - حلب وأنه فيما يتعلق بالولايات العراقية، فإنه مستعد فقط للسماح بوجود مؤقت للبريطانيين الذين

سوف يكون عليهم دفع تعويضات مالية عن استخدامهم للأرض العربية.

التفسير البريطاني لمراسلات حسين - مكماهون

سوف يكون أساسا لاتفاق سايكس - بيكو

إدراكا من مارك سايكس لأهمية استخدام الفرنسيين كحاجز بين الإمبراطوريتين الروسية والبريطانية، فإنه يعرض عليهم المناطق الأناضولية إلى جانب شمالي العالم العربي، بما في ذلك ولاية الموصل. عندئذ ستحوز فرنسا منطقة إدارة مباشرة في غربي خط دمشق - حلب الشهير، ومن ثم تشمل لبنان بينما سيفعل البريطانيون الشيء نفسه في بلاد الرافدين؛ أما فلسطين فسوف يجري تدويلها (في تفكير سايكس، سوف يشارك الأشراف في إدارة هذه المنطقة بوصفهم ممثلين للمسلمين)؛ أما المناطق الداخلية فسوف تكون مخصصة لدولة أو لاتحاد دول عربية تحت النفوذ الفرنسي في الشمال وتحت النفوذ الإنجليزي في الجنوب.

وينطلق سايكس من الفرض المشترك لدى جميع الخبراء بالمنطقة في ذلك العصر: إن الدولة العربية القادمة لن يكون بوسعها التطور إلا بفضل وصاية المستشارين الأوروبيين، كما هي

الحال بالفعل في مصر. وحرصاً منه على الإبقاء على الوفاق الودي، فإنه يتصور تعاوناً وثيقاً بين الإمبراطوريتين الاستعمارييتين الكبيرتين، عرابتي القوميات الآخذة في التشكل. ومن ثم يتم التفاوض على الاتفاق مع الممثل الفرنسي، جورج بيكو، بين يناير/كانون الثاني وأبريل/نيسان ١٩١٦. وبعد ذلك ببعض الوقت، يصدق الروس على هذا الاقتسام الذي يمنحهم جزءاً كبيراً من الأناضول. والحال أن سايكس، الفخور بنجاحه الدبلوماسي، يحاول عندئذ تكوين «مكتب عربي» في لندن، يكون تحت قيادته. لكن جماعة القاهرة تعارض ذلك وتتوصل إلى تكوين «مكتب عربي» يقتصر على وظائف استخباراتية ويكون مقره في القاهرة. ويتولى هوجارت، أستاذ لورانس السابق، قيادته الفعلية، تحت إشراف الكولونيل كلايتون.

**لكن حكومة الهند البريطانية مناوئة
للسياسة التي تنتهجها جماعة القاهرة**

بما أن المحميات البريطانية في الخليج و عدن تقع ضمن مجالهم التقليدي، لا يسعى هؤلاء المتخصصون في ما بدأ يسمى بالشرق الأوسط إلا إلى تخليد نموذج الإدارة المباشرة الممارس انطلاقاً من الهند. وهم يعتبرون الجماعة التي كوّنوها كتشنر لمأمة

من الهواة الخطرين الذين يجازفون بتهديد عين أسس السيطرة البريطانية في المنطقة. ثم إنهم يطرحون الحجة المتناقضة التي تذهب إلى أن الأشراف لا يمثلون أية قوة فعلية وأن هناك خطراً جسيماً في إنشاء دولة عربية قوية مستقلة على طريق الهند. كما أنهم يحصلون من لندن على «إشراف» تطبيق محتوى مراسلات حسين - مكماهون بفعل حقيقي من جانب القوميين وهو فعل يجري تصويره خاصة، في تلك اللحظة المحددة، بوصفه انتفاضة من جانب العناصر العربية في الجيش العثماني تفتح بذلك الطريق أمام جيوش الحلفاء. لكن الوالي التركي، جمال باشا، الذي يقبض على الولايات السورية بيد من حديد، يرتاب في الأمر: فيأمر بسحب القوات العربية من مسرح عملياته ثم يدشن قمعا لا يرحم ضد المنظمات القومية. وبالعشرات، يجري إعدام المسئولين عن الحركة علنا أو تحديد إقامتهم تحت المراقبة في الأناضول خلال عامي ١٩١٥ - ١٩١٦.

ومن جهته، وسعياً إلى تبديد حجج حكومة الهند، يكثر لورانس من التقارير التي تبين أن الشريف حسين هو بالفعل قائد يتمتع بصلات واسعة في المنطقة ولكي يبين، من جهة أخرى، أن العرب، الذين يعدون بحكم طبيعتهم غير مستقرين ومقسمين، لو أحسن البريطانيون استخدامهم «سوف يبقون في حالة موزاييك

سياسي، نسيجاً من الإمارات الصغيرة المتنافسة، العاجزة عن التلاحم وإن كانت مستعدة دائماً للاتحاد ضد قوة خارجية». وباختصار، فهذا هو أفضل ما يمكن نشدانه ليحل على طريق الهند محل دولة عثمانية متحالفة مع ألمانيا...

وعلاوة على ذلك، يعالج لورانس بشكل خاص الملفات المتعلقة بالجيش العثماني في القوقاز والذي يواجه الزحف الروسي، وهو جيش مؤلف إلى حد بعيد من القوات العربية المسحوبة من سوريا. ويوصل لورانس إلى الروس قائمة بأسماء ضباط هذه الوحدات المنتمين إلى المنظمات القومية. ويبدو، لأن المسألة ما تزال إلى الآن تعتبر من الأسرار العسكرية، أنه بفضل بلاغات لورانس، تمكن الروس من الاتصال بهؤلاء الساخطين، الأمر الذي يحتمل أن يكون قد سهل بشكل ملحوظ سقوط موقع أرضروم المنيع في فبراير/ شباط ١٩١٦.

هذا الانتصار الروسي يُبرز الضابط الشاب،
الذي يجري إرساله إلى بلاد الرافدين لتحقيق
عمل مماثل

منذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٤، كان جيش الهند قد
استولى على البصرة سعياً إلى ضمان السيطرة البريطانية على

الخليج وعلى حقول بترول فارس، وهي الحقول الوحيدة المستغلة آنذاك في تلك المنطقة. ويتميز عام ١٩١٥ بسلسلة من الانتصارات للإنجليز - الهنود الذين لا يبعدون عن بغداد، في نوفمبر/ تشرين الثاني، إلا بمسافة عشرين ميلاً. لكن العثمانيين ينجحون في صدّهم، ثم في تطويق القوات المتقدمة التي يقودها الجنرال تاونشند في مدينة كوت. وتبدأ كارثة جديدة، مماثلة لكارثة الدردنيل. ففي مارس/ آذار ١٩١٦، تفشل محاولات إدخال تعزيزات، مما يؤدي إلى خسائر ملحوظة في صفوف القوات البريطانية.

ويستفيد لورانس وجماعة القاهرة من الموقف لكي يقترحوا تفجير انتفاضة عربية في بلاد الرافدين، يكون من شأنها السماح بتحرير الجيش المحاصر. لكن حكومة الهند ترفض تقديم التنازلات السياسية الضرورية، والتي يمكن أن تهدد سياستها الرامية إلى جعل بلاد الرافدين مستعمرة نموذجية، تتبع الهند. بل يقال إنه قد جرى التفكير في توطين عدة مئات من الآلاف من الهنود هناك لاستثمار وادي الرافدين ولتتمتع بجماعة سكانية أكثر ولاء من العرب.

ويجري التخلي عن مشروع الثورة ويكلف لورانس بمهمة محدودة أكثر: الاستفادة من صلاته مع القوميين - المتصلين بالأترك - لاقتراح استسلام للجيش الإنجليزي الذي سوف يعاد

بشكل مشرف إلى الهند مع التعهد بكلمة شرف بعدم المشاركة في الحرب الدائرة. وفي مقابل ذلك، يجري اقتراح دفع مبلغ ملحوظ من المال للمسؤولين العثمانيين عن بلاد الرافدين، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى إنكفاء الخلافات في الحكومة التركية بين أنصار مواصلة الحرب وأولئك الذين يتمنون صلحا منفردا مع الحلفاء.

ويصل لورانس إلى البصرة في ٥ أبريل/ نيسان ١٩١٦. وسرعان ما يدرك أن قيمة مهمته مشكوك فيها إلى حد بعيد. وتفشل محاولات إرشاء المسؤولين العثمانيين، ويشهد، عاجزا، المفاوضات المؤدية إلى استسلام تاونشند والقوات الإنجليزية - الهندية. على أنه يستفيد من إقامته في بلاد الرافدين لكي ينكب على فحص كامل للانخراط الإنجليزي في المنطقة. وتقريره المؤرخ في مايو/ أيار ١٩١٦ دافع لسياسة حكومة الهند: إن عملاء المخابرات لا يتكلمون العربية وهم مضطرون إلى الاعتماد على ترجمانات؛ ورسم خرائط المنطقة لم يتم بشكل جاد؛ وهناك تطبيق آلي للإجراءات الإدارية الهندية على الحقائق الواقعية المحلية؛ والسكان هم بالأحرى معادون للأتراك، لكن الإنجليز - الهنود عاجزون عن الاستفادة من هذا الموقف المؤاتي؛ ويتصرفون كـ«أبي هولاء» حيث لا يقولون البتة لماذا هم هناك ولا يشرحون ما ينوون عمله. ومن الضروري إصدار بيان سياسي لحسم تردد عرب بلاد الرافدين، وغالبيتهم من

الشيعة المعادين للعثمانيين. وبوسع سياسة ذكية من جانب البريطانيين أن تكفل دعم الشيعة لهم وأن تسمح لهم بعلاقات طيبة مع رجال الدين في مدن العراق المقدسة، مماثلة للعلاقات الموجودة مع مكة، بما يمنح بريطانيا العظمى نفوذا لا ينازع على مجمل المسلمين.

عندما يرجع لورانس إلى القاهرة، يعرف
محتوى اتفاق سايكس - بيكو ويعلم
بنشوب الثورة العربية السابق للأوان

الواقع أن الشريف حسين، المنزعج من تحركات القوات العثمانية في الحجاز، والتي جعلته يخشى من عملية وقائية لإزالته، قد دشن الانتفاضة في ٥ يونيو/ حزيران ١٩١٦. وفي الأول من يوليو/ تموز، يستطيع لورانس إذا أن يكتب إلى والديه: «لقد تطلب ذلك عاما ونصفا لإعداده، لكنه يسير على ما يرام الآن. وإنه لأمر طيب جدا أن أكون قد ساهمت إلى حد ما في صوغ أمة جديدة وإنني لأكره الأتراك إلى أبعد حد بحيث إن رؤية شعبهم ينقلب عليهم يعد أمرا جد مريح. وأنا أمل في أن تكتسب الحركة أهمية، كما تعد بذلك. [...] إن الثورة، في حال نجاحها، سوف تكون أعظم شيء في الشرق الأدنى منذ عام ١٥٠٠».

على أن لورانس سوف يتعين عليه، في الأسابيع التالية، أن يبقى في القاهرة، مستأنفا عمله المكتبي، بينما يشن الجيش البريطاني الهجوم في سيناء لكي يخلص مصر من التهديد العثماني. لكن لندن ترى أن جيش مصر يجب أن يبقى على المواقع التي تم الاستيلاء عليها مؤخرا وأن يكتفي بتقديم دعم لوجستي إلى الثورة العربية. ويشعر الكابتن الشاب بالإحباط المرعب لكونه لا يشارك في المعارك، في حين أن اثنين من اخوته قد ماتا في أوروبا في عام ١٩١٥. وهو يشعر بالذنب.

الفصل الثالث

«انتصار» ؟

لورانس، الذي كان حتى ذلك الحين
رجلا يتمتع بالنفوذ، يستعد لدخول
التاريخ برسالة شخصية: خلق أمة
عربية مخلصه للإمبراطورية البريطانية

يعرف، في القاهرة، بعد انقضاء الحماس الأول، أن قوات
الأشراف، المكونة من البدو وحدهم والتي يقودها أبناء حسين الكبار
الثلاثة، على وعبد الله وفيصل، قد منيت بسلسلة كاملة من الهزائم.
ومن المؤكد أنهم يسيطرون على ساحل الحجار ومكة، لكن
العثمانيين يواصلون الاحتفاظ بالمدينة المنورة ويشنون هجمات
مضادة. والبدو هم هدف مدفعية العدو. ويتساءل الفرنسيون
والإنجليز: هل يجب عليهم أن يرسلوا إلى المسلمين في هذه

الأرض المقدسة قوات دعم أوروبية، الأمر الذي يهدد بتخريب
سمعة الأشراف السياسية ؟

ويستفيد لورانس من هذا الموقف لكي يتوصل إلى إرساله إلى
الحجاز. وهو يصل إلى جدة في ١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٦.
لكن استقصائه شخصي أكثر: فهو يحاول أن يعرف من هو الزعيم
الذي يمكن أن يختاره للثورة التي يريد أن يكون صانعها. والحال
أن حسينا كبير جدا بحيث يصعب عليه القتال، أما علي فهو يفتقر
إلى السلطة و عبد الله دبلوماسي بأكثر مما هو محارب، أما فيما
يتعلق بزيد فهو صغير جدا. والابن الثالث، فيصل، يغريه على
الفور: إنه في الحادية والثلاثين من العمر (أكبر من لورانس بثلاث
سنوات) وهو يشبه من الناحية الجسمانية ريتشارد قلب الأسد
ويحوز جاذبية زعيم عظيم. ولورانس يعلن أنه يشاطر حلما
واحدا. وردا على فيصل الذي يسأله عن رأيه في مرابطته في
وادي صفراء، يقول: «لا بأس، لكنه [الوادي] بعيد عن دمشق ...».

وهو لا يجد وحسب الرجل الذي يبحث عنه، بل إنه يدرك
على الفور الاستراتيجية التي يجب اتباعها: فيما أن البدو ليسوا غير
مجموعة من الرماة، غير القادرين على الصمود في معركة
مواجهة مخططة، فإن مجالهم المفضل سوف يكون حرب
العصابات، المتناسبة تماما مع هذه الروح الفردية التي تجعلهم غير

متماشين مع أي انضباط. وبفضل درايتهم بالساحة، يمكنهم شل تحركات الأتراك ووضع نهاية للتهديد الذي ينيخ على الثورة العربية.

ويصل تقرير لورانس في الوقت المناسب؛ وأفكاره تعزز موقف أولئك المناوئين لإرسال قوات مسيحية إلى الحجاز. وعندئذ يحاول التوصل إلى تعيينه بصفة دائمة في المنطقة، لكنه كان قد وصل إلى أن يجعل نفسه ضروريا جدا في القاهرة بحيث يصعب على رؤسائه أن يقبلوا رحيله. وفي النهاية، في ديسمبر/ كانون الأول، يتوصل إلى الموافقة على إرساله إلى فيصل بصورة مؤقتة.

وهناك يجد موقفا عسكريا أخذا في التفاقم. فالإخفاقات تؤدي إلى تفسخ الأشراف وتهديد العثمانيين لموانئ الساحل يرغم الفرنسيين والإنجليز على أن يدرسوا من جديد إنزالا في المنطقة. عندئذ يتجه فيصل إلى الشمال، وفي يناير/ كانون الثاني ١٩١٧، يستولى على موقع وجه، مرغما الأتراك على وقف زحفهم على مكة. وتتجح المناورة ويعجز العثمانيون عن شن هجوم، بسبب إضرارهم إلى نشر قواتهم لحماية السكة الحديد. ويطالب فيصل ملحا ببقاء لورانس معه بشكل نهائي، وهو ما تضطر السلطات البريطانية إلى قبوله.

منذ أن قرر لورانس أن يجعل من فيصل بطل
الثورة العربية، فإنه يطرح على
نفسه مسألة العلاقات مع فرنسا

تتأخره فوري مع الليوتنانت - كولونيل بريمون، الذي يقود
البعثة الفرنسية في الحجاز. فهذا الأخير، القادم من جيش أفريقيا
(الجزائر والمغرب) له فلسفة متعارضة تماماً مع فلسفة الكابتن
الشاب. فهو يتصور بالنسبة للمستقبل اندماجاً للعناصر العربية
والفرنسية، تومئ إليه أخوة السلاح خلال الحرب. وبشكل مباشر،
يعادي بريمون كل تحرك للأشراف في اتجاه سوريا وكان واحداً
من الداعين الأكثر حماسة إلى إنزال أوروبي في الحجاز. والحال
أن البريطانيين، المنزعجين مما يتهمونه بأنه دسائس بريمون،
سوف يتوصلون خلال عام ١٩١٧ إلى استدعائه إلى الميتروبول.
وفي المقابل، فإن كوادر الوحدة الفرنسية الصغيرة، المؤلفة خاصة
من ضباط مسلمين، والذين حصل بعضهم على الجنسية الفرنسية،
سوف يبقون إلى نهاية العمليات، حيث سيلعبون دوراً غير تافه في
معارك عام ١٩١٨.

ويرى لورانس أنه، لأجل النجاح، لابد للثورة العربية بصورة
مطلقة أن تكون ماثلة في المدن الأربع الكبرى الشهيرة لسوريا
الداخلية سعياً إلى التواجد في وضع مؤات عند التسوية النهائية.

وسياسته كلها تميل إلى أن يكون العرب أول من يدخل دمشق. ويبدو أنه في أوائل عام ١٩١٧ قد أبلغ فيصل بذلك تلميحاً، الأمر الذي يفسر التحرك الذي قام به نحو الشمال منذ أواخر ١٩١٦. وإذا ما صدقنا أعمدة الحكمة السبعة، ففي تلك اللحظة بالتحديد بلور لورانس استراتيجيته النهائية أثناء مرضه واستراحته في معسكر عبد الله. ومستعيداً ذكريات قراءاته حول فن الحرب، يحدد خصائص حرب العصابات: بما أن حرب الحجاز قد تم كسبها بالفعل، مادام الأشراف يسيطرون على الساحة وبما أن العثمانيين معزولون في مواقعهم الثابتة، فإنه لا فائدة من السعي إلى معركة جبهة ضد الأتراك؛ ويجب، على الضد من ذلك، استتزاز العدو بالهجوم بصورة منهجية على خطوط إمداده، كخط السكة الحديد. وكل ذلك يفترض منظومة استخبارات ناجزة وحركية كلية للمقاتلين ودعماً أكيداً من جانب السكان المحليين.

ولورانس ليس مخترع حرب العصابات في القرن العشرين — فهي قد مورست بالفعل من جانب البوير ضد الإنجليز في جنوب أفريقيا ومن جانب العثمانيين في ليبيا ضد الإيطاليين في عام ١٩١٢ —، لكنه أول منظر لها. وما يصرح به في أعوام ١٩١٧ — ١٩٢٠ هو المبادئ الرئيسية للحرب الثورية، تطويق المدن من جانب الأرياف وكون المقاتلين «سبكاً في الماء» بين السكان.

وهنا، يجب ترك الأتراك سادة للمدينة المنورة، التي لا يستطيعون الخروج منها، بما يؤدي إلى شل جنود النخبة وتحقيق استنزاف في تقديم العون لهم. وهكذا، فخلال عام ١٩١٧، عندما فكر العثمانيون في الانسحاب من المدينة المقدسة لتعزيز قواتهم التي تواجه الجيش البريطاني في فلسطين، أثار العرب منع هذا التحرك بدلاً من الاستيلاء على المدينة، الذي كان من شأنه أن يعود عليهم بكسب سياسي غير تافه.

مادامت الثورة تسيطر، فعلياً، على

الحجاز وأن هدفها الحقيقي هو سوريا،

فإن المرحلة التالية هي العقبة

منذ بداية الحرب، تتكشف أهمية هذا الموقع وقد قصفته القوات البحرية الإنجليزية والفرنسية في عدة مناسبات. وعلى مدار عام ١٩١٦، شدد بريمون على ضرورة إنزال للاستيلاء على هذا الموقع الحيوي - خاصة ما أن يسيطر الإنجليز على سيناء - بما يكفل الربط بين الحرب في الحجاز وحملة فلسطين.

ومتحدثاً باسم فيصل، يدعو لورانس لدى رؤسائه إلى هجوم عربي على العقبة، لا يمكن أن يفشل من داخل الأراضي، حيث إن

الميناء لا يجد دفاعاً عنه إلا من جهة البحر. لكن الأركان العامة في القاهرة، في أبريل/ نيسان ١٩١٧، معادية لمشروع كهذا. ويتزايد انزعاج لورانس عندما يعرف أن سايكس وبيكو قد زارا جدة للنقاش مع الشريف حسين.

والحال أن المفاوضين، بعيداً عن أن يقدموا تفاصيل ملموسة للاتفاق الفرنسي - الإنجليزي، يعقدان الموقف بالحديث عن منح فرنسا في سوريا مكانة مساوية لمكانة إنجلترا في بلاد الرافدين. وبالنسبة لحسين، الذي لم يوافق إلا على وجود مؤقت للبريطانيين في بغداد وفي البصرة، فإن ذلك يعني أن فرنسا ليست ذات أطماع حقيقية في سوريا، أما بالنسبة لسايكس، فإن هذا الكلام الجديد لا بد له في آن واحد من أن يشكل عقبة أمام أطماع الفرنسيين وأطماع حكومة الهند في الأراضي العربية. وهذا التعاقب للالتباسات ليس من شأنه غير تعقيد موقف ديبلوماسي ملتبس بالفعل (في الوقت نفسه يفكر الحلفاء في إمكانية عقد صلح منفرد مع العثمانيين). ومن ثم فمن الملح العمل في سوريا، ومن ثم الاستيلاء على العقبة، همزة الوصل مع الجيش البريطاني الذي يتقدم في سيناء.

وفي ٩ مايو/ أيار، مع الشريف ناصر، أفضل مساعدي فيصل، وعدوه أبو طي، أشهر محارب في شمال شبه الجزيرة، إلى

جانب خمسة وأربعين رقيقاً، يشن لورانس الحملة في اتجاه مناطق الشمال. وهو يهاجم في البداية خط السكة الحديد، ثم ينتقل من مخيم إلى مخيم، ومن قبيلة إلى أخرى، سعياً إلى تجنيد رجال. وفي الشطر الأول من يونيو/ حزيران، يترك لورانس معظم القوات وفي غارة شجاعة بشكل غير عادي، يصل إلى مشارف دمشق وسهل البقاع لكي يدرس وضع هذه المنطقة الواقعة في قلب الانتشار التركي. كما يحاول تتي السوريين عن الانخراط في ثورة سابقة للأوان حتى لا يتعرضوا لأعمال انتقامية رهيبة من جانب العثمانيين.

وفي ١٨ يونيو/ حزيران، يرجع إلى وحدة ناصر. وبعد سلسلة من هجمات حرف الأنظار على خط السكة الحديد، يحشد ناصر وعدوه ولورانس الرجال، في ٢ يوليو/ تموز، وفي هجمة قوية عبر الصحراء، يجتاحون المواقع العثمانية على طريق العقبة، ثم يستولون على المدينة دون صعوبة كبيرة. وهذا المشروع الجنوني يقلب الموقف: إن القبائل البدوية في شرقي الأردن تتحاز إلى الأشراف.

وخلال مجمل الحملة، أثبت لورانس صموداً جسدياً غير عادي: لقد واجه الطرق الطويلة في وسط معادٍ بقليل من الماء وبقليل من الغذاء. وأصبحت الثعابين والعقارب منذ ذلك الحين

جزءاً من بيئته اليومية. وكل خطوة هي انتصار على الألم،
والمرض (الحمى، الدوسنتاريا) يصيبه بصورة منتظمة. لقد كان
يريد أن يبدو أكثر تحملاً من رجال الصحراء، فدخل بذلك معهم
في نوع من السباق حيث يحاول كل واحد أن يتفوق على
ذاته.

لورانس يسارع بالذهاب إلى القاهرة
مجتازاً سيناء ويجد هناك وضعاً
تغير كثيراً منذ إقامته الأخيرة

منذ شهر مارس/ آذار، ثم في أبريل/ نيسان 1917، يحاول
البريطانيون التغلغل في فلسطين عبر محاربة العثمانيين، لكنهم
يصطدمون بمقاومة جبارة تكلفهم عشرة آلاف قتيل وجريح ومفقود
خلال معركتي غزة الأولى والثانية. ومن المؤكد، بعد الدردنيل
وكوت، وبالرغم من الاستيلاء على بغداد في 11 مارس/ آذار، أن
الأتراك يظلون عدوا رهيب الجانب. وتهدد الحرب في الشرق بأن
تتحط إلى حرب خنادق كما في أوروبا، لا سيما وأن الثورة الروسية
تؤدي إلى انسحاب القوات العثمانية من القوقاز، فتجسيء التعزيز
جبهتي فلسطين وبلاد الرافدين.

إلا أنه منذ أواخر عام ١٩١٦، تنتصر جماعة الشرقيين [Easterners] في لندن مع تشكيل حكومة لويد جورج، التي تقرر أنذاك إرسال جنرال إلى الشرق، تميز في أوروبا، هو النبي، سعياً إلى استعادة زمام الأمور. والحال أن لويد جورج المحتاج بشكل لازم إلى نجاح في الشرق بعد الانتكاسات الأوروبية، إنما يطلب منه «القدس هدية للأمة البريطانية في عيد الميلاد». ويتولى النبي قيادته في القاهرة في ٢٨ يونيو/ حزيران. وسرعان ما يجد نفسه منجذباً إلى ذلك الذي، ليس فقط يهديه العقبة، وإنما يقترح عليه في التو والحال خطة كاملة للعمليات في فلسطين، حيث يمكن للأشراف أن يشكلوا الجناح الأيسر للجيش البريطاني، بما يؤدي إلى شل جانب كبير من قوات العدو وشل مواصلاته.

وهكذا فإن لورانس، الذي رقي إلى رتبة ميجور، يحتل الآن مكانة فريدة. فمن الجانب البريطاني، مع بقائه من الناحية الرسمية مجرد ضابط اتصال، يعد في الواقع المسئول الرئيسي عن السياسة تجاه الحجازيين الذين يحسن جيداً توجيههم، وهو الأمر الذي ليس من شأنه غير تعزيز مكانته لدى العرب، الذين لا يجهلون أن جزءاً من المساعدة البريطانية يجيء عن طريقه.

ومنذ الاستيلاء على العقبة، تتزايد المساعدات البريطانية زيادة ملحوظة. ومن المؤكد أن الثورة العربية لم تؤد إلى الانتفاضة العسكرية التي كان الحلفاء يتوقعونها، لكن فصم عري الوحدة الإسلامية هو رصيد رئيسي. واستئناف الحج إلى مكة من جانب مسلمي الإمبراطوريتين الاستعماريتين الكبيرتين هو البرهان الدامغ على فشل سياسة الجامعة الإسلامية التي تنتهجها ألمانيا. والأشراف، بدلا من أن يضطروا الحلفاء إلى تحويل جزء من قواتهم إلى جبهة الحجاز، إنما يقدمون مساعدة فعلية لمعركة فلسطين. ويجري إرسال أسلحة وأموال وخبراء بريطانيين إلى جيش فيصل، الذي جعل من العقبة قاعدته الرئيسية. وعندئذ يحرر لورانس نصا من ثمان وعشرين مادة يصبح مرجع البريطانيين العاملين في الجيش العربي:

توجيه عرب الحجاز فن وليس علما. لا تصدر أبدا أوامر بل بالأحرى نصائح للقادة الذين يجب كسب ثقتهم. كلما كان التدخل أقل سفورا كلما كان النفوذ أعظم. في كل مكان، يجب دعم الأشراف، الذين يشكلون الأرستقراطية الوحيدة فوق القبلية القادرة على توحيد جميع البدو. من الأفضل عدم ارتداء الملابس العربية، مع ما ينطوي عليه ذلك من خطر الظهور بمظهر ممثل في مسرح

أجنبي، يلعب دورا نهارا وليلا على مدار شهر، دون راحة ومن أجل رهان مشكوك فيه. وإذا ما ارتدى المرء ثوبا عربيا، فمن الأفضل عندئذ أن يكون ثوب شريف، لكن متطلبات ذلك سوف تكون جد فادحة: «أترك على الشاطئ أصدقاءك وعاداتك الإنجليزية وتقبل العادات العربية بالكامل. وبوسعنا، عندما نتحرك بهذا الشكل في مساواة معهم، نحن الأوروبيين، أن نبرز العرب في لعبتهم الخاصة، لأن دوافعنا إلى الفعل أقوى من دوافعهم».

وبوجه عام، «هذا هو سر، كل سر استخدام العرب بشكل جيد: لا تكف عن دراستهم. كن محترسا دائما: راقب نفسك وراقب رفاقك، طوال الوقت، أنصت لكل ما يجري، حاول أن تكتشف ما يحدث على السطح، أسبر شخصياتهم، اكتشف ميولهم ونقاط ضعفهم واحتفظ لنفسك بكل ما تكتشفه. توحد مع الأوساط العربية؛ لا تهتم ولا تفكر إلا في العمل الجاري، بحيث لا يتشبع دماغك إلا بشيء واحد. والحال أن نجاحك سوف يكون متناسبا مع كمية الجهد الفكري الذي تكرسه لذلك».

وهذه الفقرة التي تعد مرجعا كاملا في الاثنولوجيا السياسية هي اعتراف باطني. إن لورانس الذي ارتدى ثياب الأشراف

بناء على طلب من فيصل منذ إقامته الثانية في الحجاز، هو بسبيله إلى أن يكشف هناك عن الأمارات الأولى لدراماه الشخصية.

حياته السابقة كلها بدا أنها قد أعدته للمغامرة الكبرى، لكن واقع حياة الصحراء والحرب يتكشف عن شيء آخر

كلما توحد مع دوره، كلما تكشفت له طبيعته البريطانية الفيكتورية العميقة وكلما تمرد على الكائن الذي هو بسبيله إلى أن يكونه. وفي أعمدة الحكمة السبعة سوف يكون الاعتراف رهيباً: «الإنسان الذي يقبل امتلاك الغرباء له يحيا أسوأ حياة، ألا وهي حياة العبد، لأنه قد باع روحه لإنسان فظ». وهو يلحظ في محصلة المشروع «شعورا بالوحدة الكثيفة مصحوبا باحتقار ليس للآخرين وإنما لكل ما يصنعونه. ومستنزفا من جراء مجهود بدني وانعزال مدينين بدرجة متساوية، عرف إنسان هذا الانفصال الفائق، وبينما تقدم جسده كآلة، تخلت عنه روحه العاقلة لكي تبت فيه نظرة نياقة بالتساؤل عن غاية ومبرر مثل هذا الزحام. بل إن هذه الشخصيات أحيانا ما تتخرط في محادثة في الفراغ: عندئذ يكون الجنون قريبا،

وأعتقد أنه قريب من كل إنسان يستطيع أن يرى الكون في أن واحد عبر حجابي ملبسين وتريبتين ووسطين».

وهذا الضغط الملحوظ يتعزز مع اكتشاف العنف. ففي أول مرة تعين عليه قتل رجل بدم بارد كجلاد، سعياً إلى تجنب نشوب مسلسل ثأر قبلي، اضطراب تماماً. وإذا كانت تستحوذ عليه حمية المعارك، فإن تبددات الأوهام قاسية. وهو يعترف لأصدقائه: إن قتل الأتراك فظيع. أما الإجهاز على جرحاه هو، وهم أعزاء، حتى لا يسقطوا في أيدي الأعداء فهو أمر لا يحتمل.

ولورانس ليس جندياً محترفاً، حتى وإن كان يبدو أكثر روعة وأكثر حدقاً من آخرين. وهو يدرك أن قدرته على التحمل المعنوي أكثر محدودية من تحمله البدني. وبما أنه قد قرر أن يجعل من الثورة هدفة، فإنه يعتبر نفسه مسئولاً عن وعد الإنجليز بالاعتراف بالاستقلال العربي. وهو يكثر من التأكيدات إلى درجة التعهد بحياته كضمانة لحسن النوايا البريطانية. إلا أنه بما أنه مقتنع بأن هذا كله ليس غير احتيال واسع، مادام الإنجليز على استعداد لتسليم جزء من الأراضي العربية إلى الفرنسيين، فإنه لا يقدر على نسيان لا أخلاقية دوره.

كل هذا يقوده إلى تعريض نفسه لمخاطر
قصوى، كما لو أنه يبحث عن الموت. لكن
ما ينتظره في درعا أسوأ بكثير

إذ يتخذ فيصل من العقبة قاعدة له، فإنه يبتعد عن والده
جغرافياً ومعنوياً. وهو يشارك قليلاً في العمليات العسكرية وينكب
بلا كلل على مهمته المتمثلة في البناء السياسي، حاشداً حوله قبائل
شرقي الأردن ومنظماً جيشاً نظامياً، بفضل الضباط السابقين العرب
في الجيش العثماني، ومعظمهم ينحدر من بلاد الرافدين. أما فيما
يتعلق بلورانس، فإنه يواصل شن غارات تدمير على سكة حديد
الحجاز. وإذا كانت النجاحات متفاوتة، فإن النبي سعيد بالإزعاج
الذي أصاب المواصلات العثمانية. وهو يعتمد على لورانس في
هجومه الكبير في الخريف ويكلفه بعملية ضد مفرق السكة الحديد
في درعا وبعد تفكير، يرفض لورانس استئثاره انتفاضة في منطقة
تقع في أقصى الشمال ومعزولة عن الثورة. والواقع أن السكان
المحليين سوف يتعرضون لتدابير انتقامية رهيبية، بعد الرحيل
الحتمي للطابور التابع للأشراف. وبدلاً من ذلك، يقترح غارة
جسورة تهاجم جسور السكة الحديد في اللحظة التي يشن فيها النبي
هجومه. وهذا الأخير يقبل ذلك.

ووفقاً لعادتها، تقوم قوة لورانس الصغيرة بتجنيد في الساحة للرجال الضروريين للهجمات. إلا أنه هذه المرة، تحدث حالات فرار، أفدحها هو فرار عناصر جزائرية مستقرة في سوريا تحت قيادة عائلة الأمير عبد القادر الجزائري. ويفشل الهجوم على أحد الجسور وتتعثّر بقية العمليات في برودة وأمطار نوفمبر/ تشرين الثاني. ويحزن لورانس لعجزه عن الوفاء بوعوده لألنبي ويشعر بأن مصداقيته كلها مهددة. وفي تلك الأثناء، بفضل مناورة جعلت الخصم يتصور أن اللنبي سوف يهاجم غزة بينما هو يحشد قواته في النقب، ينجح الأخير في تمزيق الجبهة العثمانية في بئر سبع، ثم ينجح في الاستيلاء على غزة في ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني. على أن تقدمه يتعثّر بسبب سوء الأحوال الجوية وبسبب واقع أن العثمانيين ينسحبون في نظام جيد مع مواصلتهم القتال.

وفي ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، يقرر لورانس القيام بمهمة تجسس في داخل درعا، إلا أنه يتم إلقاء القبض عليه من جانب عدد من الحراس الذين يحسبونه فاراً شركسياً. وفي الساعات التالية، يقال إنه تعرض لعروض جنسية مثلية من جانب والى المدينة. وبما أنه يرفض، فإنه يجري ضربه بقسوة ثم اغتصابه (من جانب الوالي أو من جانب الجنود، يصعب أن نعرف ذلك كما أن من الصعب أن نعرف ما إذا كانوا قد تعرفوا عليه أم واصلوا

اعتباره شركسياً). وبعد أن تركوه في أحد الأركان، نجح في الهرب
واللحاق برجاله.

وكغالبية الشبان من جيله ومن وسطه الاجتماعي، لم يكن
لورانس قد مر بأية تجربة جنسية. كما أن فظاعة هذا الاغتصاب
لا بد أنها كانت رهيبية، بينما كان يعاني بالفعل من شعور قوي
بالذنب.

رجل محطم معنوياً وبدنياً هو الذي

يلحق بالنبى

هذا الأخير يدعو إلى المشاركة في الدخول المهيّب لقوات
الحلفاء إلى القدس في ١١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٧. وإذا
يستأنف لورانس الاتصال برؤسائه يكتشف أن أطروحاته السياسية
قد اعتمدت. ففي لندن والقاهرة والقدس على حد سواء، يجري
السعي إلى تهديد اتفاق سايكس - بيكو وقصر الوجود الفرنسي في
المشرق العربي على أرض لبنانية صغيرة. ورداً على بيكوف،
الموجود في القدس، والذي يطالب بإنشاء إدارة مدنية في القدس،
حيث سيكون للفرنسيين مكانهم، بموجب محتوى الاتفاق، يرفض
النبى ذلك ويفرض القانون العسكري على مجمل الأراضي

المفتوحة سعياً إلى منع انبثاق أية سلطة أخرى غير سلطته. وفي الوقت نفسه، يعلم لورانس بوجود تصريح بلفور، الذي مر شهر على صدوره (لكن البريطانيين حظروا نشره في الشرق الأدنى) والذي تؤيد الحكومة البريطانية بموجبه إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين. وخلال إقامته الأولى في الشرق، كان قد عبر عن آراء مؤاتية للصهيونية، بل إنه قد حث فيصل على عدم التحرك في غربي خط البحر الأحمر - البحر الميت - الأردن، بما يؤدي إلى ترك فلسطين جانباً. وكانت للثورة صلات طيبة مع اليهود العرب في الجليل، في حين أن المستوطنين اليهود الأوربيين قد حرصوا من الناحية الظاهرية على الابتعاد عن النزاع بين العرب والأتراك. ومع اعتراف لورانس بأهمية تعلق الفلاحين الفلسطينيين بأراضيهم وبواقع أن الأمور سوف تتغير مع قيام دولة عربية على حدود فلسطين، إلا أنه لا يحب «فلاحي فلسطين الكئيبين هؤلاء، الأكثر غباءً من صغار الملاك في شمالي سوريا، والماديين كالمصريين والخربيين» ويرى في وعد وطن قومي يهودي المرحلة الأولى نحو إلغاء اتفاق سايكس - بيكو.

ومن جهة أخرى فقد حان الوقت لمنازعة محتوى هذا الاتفاق: فالبلاشفة، الذين استولوا على السلطة في الشهر السابق، قد نشروه

للتو والدعاية العثمانية تستخدم تصريح بلفور للتدبير بخيانة الحلفاء للعرب. وعلاوة على ذلك فإن الولايات المتحدة التي دخلت الحرب كشريك وليس كحليف لدول الوفاق، ترفض الاعتراف بالاتفاقيات الإمبريالية، مشيرة إلى أنها تتعارض مع حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

وبالرغم من حالته المعنوية والبدنية، يستأنف لورانس مهمته وسوف يرافق العرب حتى نهاية المغامرة وقد أوضح النبي له جيداً أنه يحتاج إليه دائماً. وتتألف استراتيجية الجنرال من خلق انطباع بأنه سوف يركز مجهوده على شرقي الأردن في حين أن هجومه، الذي تقرر أن يتم في الربيع، سوف يحدث في الواقع على السهل الساحلي. وكلما أصبح عمل الأشراف نشيطاً، كلما أمكن لاستراتيجية النبي أن تؤتي ثمارها.

**مصير لورانس يصبح مرتبطاً بالثورة
العربية. وسوف يدخلان معاً في
أسطورة القرن العشرين**

حتى ذلك الحين، كان الحلفاء قد تجنبوا القيام بدعاية للثورة العربية، خارج العالم الإسلامي. إلا أنه مع تهديد اتفاق سايكس -

بيكو يتغير الموقف ويشجع البريطانيون الصحافة الدولية على نشر تقارير عن عمل الأشراف. وهكذا، يجري التصريح لصحافي أمريكي شاب، هو لويل توماس، بالإقامة في العقبة. وسرعان ما يرى أنه يحرز «السبق الصحفي» للعصر ويكثر من الكليشيات الفوتوغرافية والمبالغات، بتشجيع من السلطات ومن لورانس نفسه، الذي رقي إلى رتبة ليوتنانت - كولونيل في ١٢ مارس/ آذار ١٩١٨. وهكذا يبدأ ما سوف يصبح أسطورة لورانس العرب.

والحال أن وحل وثلج الشتاء الفلسطيني يحولان دون أية عملية عسكرية. وينتظر النبي الربيع لكي يستعد لاستئناف الهجوم. إلا أنه يفاجأ بسحب جزء من قواته، جرى إرساله إلى أوروبا لمواجهة الضربات العنيفة للهجمات الألمانية الكبرى الرامية إلى إحراز الانتصار قبل وصول القوات الأمريكية.

وانعدام اليقين في أوروبا له صدهاء على الجبهة الشرقية. إذ يجري الإنجليز مفاوضات سرية مع العثمانيين في سويسرا للتوصل إلى صلح منفرد.

ومن جهته، يفتح فيصل خط اتصال مع العثمانيين الذين يعلنون استعدادهم للاعتراف بحكم ذاتي للعرب. ولورانس يشجعه بقوة في هذا الطريق. وبسبب انزعاجهم، يقرر الإنجليز إضفاء

الشرعية على سلطة فيصل على الأراضي الواقعة إلى شرق الأردن والإكثار من التصريحات التي تتحدث عن حق العرب في تقرير مصيرهم. بل إن آخر تصريح، والمؤرخ في ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨، سوف يشارك في التوقيع عليه الفرنسيون، الراغبون في طمأنة الأمريكيين المنزعجين من أطماع حلفائهم في الحرب. وفيما بعد، سوف يرى البريطانيون أن مما يدعو إلى الأسف أنهم قد نشروا هذا التصريح في فلسطين.

وفي أبريل/ نيسان ١٩١٨، ولأول مرة، تواجه القوات النظامية للثورة العربية القوات العثمانية مواجهة مباشرة في معركة معان. والنتيجة مرضية، حتى وإن كانت المدينة تبقى في أيدي الأتراك. وفي تلك الأثناء، يصل تخريب خطوط السكك الحديدية إلى ذروته. وفي الأشهر التالية، تبقى القوى المختلفة في مواقعها. والحال أن اللنبي، الذي يحصل على تعزيزات قادمة من الهند، يعيد تنظيم قواته ويستعد لهجوم كبير في شهر سبتمبر/ أيلول.

لورانس، بالرغم من اكتتابه، ينكب

بالكامل على تنظيم عملية اللنبي

إلا أنه يتعين عليه مواجهة أزمة سياسية شديدة مع حسين. فالواقع أن الشريف قلما يتسامح مع استقلالية فيصل المتعاضمة وهو

يجد أن ابنه خاضع جداً للمؤثرات البريطانية. ويرفض أن يرسل إليه رجالاً كما يرفض استقبال لورانس. وسوف يمضي إلى حد الاعتراض على التعيينات التي قام بها فيصل في جيشه لحساب ضباط من بلاد الرافدين. وهؤلاء الأخيرون يستقبلون عشية هجوم النبي. وينفذ لورانس الموقف بالتلاعب برسائل الراديو بين حسين وابنه، حيث كان الأشراف يعتمدون في اتصالاتهم على الخدمات البريطانية التي كانت تفك بالطبع شفراتهم.

وهكذا فإن العرب يلعبون عين الدور الذي حدده لهم النبي. والحال أن حشود قوات الأشراف (٨٠٠٠ جندي نظامي وعدد غير محدد من البدو) وغارات المسافات الطويلة عبر شرقي الأردن قد جعلت الأتراك يتصورون أن ذلك هو المحور الرئيسي للهجوم الإنجليزي - العربي. وفي ١٩ سبتمبر/ أيلول، ينجح النبي في اختراق الجبهة التركية في السهل الساحلي. وتتسحب القوات العثمانية في فوضى نحو الشمال - الشرقي، مما يؤدي إلى الانسحاب الشامل للحاميات شرق الأردن. ويتسارع هذا الانهيار من جراء هجمات الأشراف التي تقطع خط السكة الحديد. ووسط ارتباك الأتراك، يذبحون سكان قرية طفس العربية. وفي ٢٦ سبتمبر/ أيلول، يهجم رجال لورانس غاضبين على طابور العدو ولا يبقون على أحد أسيراً.

والآن يصبح طريق دمشق مفتوحاً. والحال أن قوة الفرسان الأستراليين التي أرسلها النبي عبر الجولان تسبق بقليل دخول الأشراف إلى المدينة المهجورة. إلا أنه في أول أكتوبر/ تشرين الأول بالفعل، كان القوميون العرب قد سيطروا على المدينة باسم فيصل. وبعد أن ساعد لورانس في العملية الصعبة الخاصة بإعادة النظام إلى دمشق بسبب صدامات بين الأشراف والدروز والجزائريين، يطلب على الفور إذنًا بالذهاب إلى أوروبا. وهو يرحل في ٤ أكتوبر/ تشرين الأول. ولن يعود أبداً إلى سوريا. وسبب رحيله السريع، بخلاف الاشمئزاز الذي يلزمه حيال مشهد أعمال العنف الأخيرة، هو الدفاع عن قضية فيصل في المناورات الدبلوماسية الكبرى القادمة.

الفصل الرابع صانع الدول

بعد أن عاش لورانس حياة البدو
الفضة، لا يبدو أنه غريب في الدوائر
العليا للديبلوماسية الدولية

يصل لورانس إلى لندن في أواخر أكتوبر/ تشرين الأول
١٩١٨ ويبدأ حملة من أجل تحقيق مخططاته السياسية. ويجب
القول بأن أفكاره تتوافق إلى حد بعيد مع التوجهات العامة للحكومة
البريطانية: إعادة النظر في اتفاق سايكس - بيكو، منازعة
الوجود الفرنسي في سوريا، ربما باستثناء مناطق لبنانية، إنشاء
وطن قومي يهودي في فلسطين. لكن هدفه الثانوي، إنهاء
السياسة «الاستعمارية» لحكومة الهند في بلاد الرافدين، يجازف
بجر عداوة جزء من جهاز السلطة له. وكل شيء يتم باسم مبدأ
تقرير المصير.

والتباس مؤتمر الصلح يكمن في الملاءمة بين الأطماع البريطانية في الشرق الأدنى والخطاب السياسي السائد منذ عام ١٩١٧: إنهاء الإمبريالية وتأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وإذا كان الإنجليز – الهنود يبدون متخلفين عندما يؤكدون أن سكان بلاد الراقدين يجب أن يخضعوا لحكم مديرين بريطانيين «نزيهين ومنصفين»، فإن جماعة القاهرة تلعب على الكلمات بطرحها كمسلمة أن مصطلح «استقلال البلدان العربية» لا يعني غير تفكيك الدول العثمانية.

لورانس وأصدقاؤه يعتقدون بإخلاص أن
العرب يتمنون وصاية بريطانية طويلة
الأمد بما يكفي

ومن جهة أخرى، عندما يحتج العرب على السياسة الإنجليزية، مثلما يفعل ذلك الفلسطينيون، فإنهم يكفون عن أن يكونوا عرباً أنقياء وحقيقيين ليصبحوا «شواماً بشعين». وفي نوفمبر/ تشرين الثاني، يعرض لورانس آراءه على الأوساط الحاكمة البريطانية: إنه يقترح تقسيم الشرق الأدنى إلى أراضٍ ممنوحة لمختلف أبناء الشريف حسين: بغداد وبلاد الراقدين السفلى لعبد الله، بلاد الراقدين العليا لزيد، سوريا لفیصل مع ممر إلى

البحر، على أن يخلف علي والده في الحجاز. وهو يرفق منكرته ببادرة مثيرة: رفض الحصول على نيشان من الملك بسبب انعدام نزاهة السياسة البريطانية حيال العرب.

ويحتل لورانس مكانة أساسية في الترتيب البريطاني، فهو محادث الهاشميين. ولا أحد يعرف ولا يريد أن يعرف ما إذا كان عضواً في الوفد البريطاني إلى المؤتمر أم مستشار فيصل المختار لتمثيل العرب في فرساي - إن البريطانيين، الحذرين، قد حاولوا منع وجود وفود عربية أخرى، مصرية أو فلسطينية أو لبنانية - بالرغم من تحفظات حسين الذي يجد ابنه تحت نفوذ قوي من جانب لورانس الذي يرتاب فيه منذ وقت بعيد.

وفي أول ديسمبر/ كانون الأول، يجتمع لويد جورج وكليمنصو من غير مستشاريهما. والحال أن الفرنسي، الراغب في تجنب مواجهة، يقترح اتفاقاً شفهياً: تتخلى فرنسا عن مطالبها في فلسطين وبلاد الرافدين العليا، وفي المقابل تعترف بريطانيا العظمى بالنفوذ الفرنسي على سوريا. وسوء التفاهم كامل بقدر ما أن لويد جورج يتصور أنه بمواصلته التشدد سوف يتمكن من اختزال المواقف الفرنسية (في ذلك الوقت يبدأ الجيش الفرنسي في الاستقرار على الساحل السوري - اللبناني وفي جنوبي الأناضول)، بينما كان الفرنسيون عازمين على عدم تقديم تنازلات إضافية.

وإذ كان لورانس يجهل نتائج هذا اللقاء، فإنه يدقق استراتيجيته: يجب الضغط على فرنسا بالحصول على دعم الأمريكيين بفضل التوصل إلى اتفاق مع الصهيونيين. وعندما يصل فيصل إلى لندن، في الأيام العشرة الثانية من ديسمبر/ كانون الأول، يجتهد لورانس في كسب قبوله لهذا المشروع.

لورانس وفيصل ووايزمان

ما تزال الحادثة غامضة لأننا لا نحوز غير نصوص مكتوبة بالإنجليزية، حررها لورانس ووقعها فيصل الذي لا يعرف الإنجليزية، في حين أن تصريحاته بالعربية وبالفرنسية، التي يتكلمها بشكل طيب، تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. والحال أن لورانس قد اعترف بأنه قد تلاعب بالمراسلات بين فيصل ووالده.

لقد كان فيصل يعرف خاصة اليهود العرب وكان يعتقد أنه لا مجال هناك للدخول في نزاع معهم. وفي تصريحاته (بالعربية وبالفرنسية)، يقبل مبدأ مساواة في الحقوق بين العرب واليهود في فلسطين، وفقاً لشعار الثورة العربية لدى وصوله إلى سوريا «لكل ديانته والوطن للجميع»، مستبعداً كل اعتراف بالحقوق القومية

للصهيونيين. وتحت ضغط من لورانس والمسئولين البريطانيين، يعترف فيصل بأنه يجب إيلاء الأولوية للمسألة السورية، في مواجهة الدعاوى الفرنسية، وأنه فيما يتعلق بفلسطين، فإن العرب ليسوا مستعدين لتحمل مسؤولية إدارة منطقة لها أهمية كبيرة بالنسبة لبقية العالم: ومن ثم، فإن إنشاء وصاية خارجية (وصاية بريطانيا العظمى أو في نهاية الأمر وصاية الولايات المتحدة) إنما يفرض نفسه بالنسبة للأرض المقدسة.

وفي ٣ يناير/ كانون الثاني ١٩١٩، في لندن، يدفعه لورانس إلى توقيع اتفاق مكتوب بالإنجليزية مع وايزمان، زعيم الحركة الصهيونية، يشار فيه إلى أوثق تعاون ممكن بين فلسطين ينشأ فيها وطن قومي يهودي ودولة عربية في دمشق. لكن الهاشمي يضيف ملحقاً بالعربية يجعل فيه تنفيذ الاتفاق مشروطاً بالتحقيق الكامل لمطالبه الاستقلالية.

ويتكرر الالتباس نفسه في فرنسا. فهناك، ليس فيصل وحيداً، بل هو في صحبة عدة مستشارين سياسيين عرب يرتابون في الأطماع السياسية الأوروبية. على أن لورانس سوف يفعل كل شيء من أجل الاحتفاظ باحتكار علاقات فيصل مع الخارج. وهكذا، فعندما يدلي الأمير بحديث صحافي معاد للصهيونية في صحيفة

لوماتان الفرنسية، يسارع لورانس إلى تحرير تكذيب يؤكد فيه أن هناك مكاناً كافياً في فلسطين لشعبين ويدفع فيصل إلى التوقيع عليه في أول مارس/ آذار ١٩١٩.

استراتيجية لورانس سوف تقود فيصل إلى مازق سياسي حقيقي

إن كليمنصو، الذي لم يكن قط مؤيداً للاستعمار، مستعد للتفاهم مع الهاشميين على الأساس عينه كالإنجليز: وصاية مرنة جداً ومؤقتة. وبشكل مواز، فإن حضور لورانس الطاغي يثير غيظ الفرنسيين. فهؤلاء ينفرون من قبول فيصل يبدو لهم صنيعاً للبريطانيين. ثم إن دعم الصهيونيين، البعيد عن أن يكون قد ساعد الحركة العربية، هو عامل مفاقم للموقف، فالمسألة، بالنسبة لباريس، هي أيضاً هنا مسألة حيلة من جانب الإنجليز للتصل من وعودهم. ولم يكن لورانس قد أدرك ثقل الإرساليات التبشيرية الأمريكية، الأوسع نفوذاً بكثير من الصهيونيين لدى الرئيس ويلسون، والتي تشير إلى تعارض المطالب العربية والصهيونية... ولورانس نفسه يبدأ في إدراك ذلك ويلقي بالمسئولية عن تدهور العلاقات بين العرب الفلسطينيين والصهيونيين على دوي بعض تصريحات المسؤولين الصهيونيين، كالمطالبة، مثلاً، بإنشاء دولة يهودية.

والحال أنه كلما مرّ الوقت كلما افتقر البريطانيون إلى إمكانيات إبقاء قوات مسلحة ملحوظة في الشرق (مليون رجل في بداية عام ١٩١٩). فالأزمة الاقتصادية بعد الحرب وتكاثر المصاعب السياسية التي تواجهها الإمبراطورية (القوقاز، الهند، مصر، إيرلنده) يوضحان على نحو صارخ للمسئولين البريطانيين أنهم لم يعودوا يملكون إمكانيات تحقيق سياستهم. وفي سبتمبر/أيلول يضطر لويد جورج إلى إعلان انسحاب القوات البريطانية من سوريا، بما يترك الفرنسيين والأشرف وجهاً لوجه.

وخلال المؤتمر، يتأثر لورانس تأثراً شديداً بموت والده في أبريل/نيسان ١٩١٩. وفي تلك الفترة يبدأ في كتابة قصة مغامرته في الشرق، مستعيداً عنوان مشروع كتاب يرجع إلى ما قبل عام ١٩١٤، أعمدة الحكمة السبعة. وراغباً في استعادة أوراقه الشخصية في مصر، ينتهز فرصة رحلة لطائرة تتبع سلاح الجو الملكي إلى القاهرة. وتتحطم طائرته في مطار روما في ١٧ مايو/أيار، إلا أنه تتاح له فرصة النجاة من الحادث بكسر في الكتف وبعض الرضوض. وهو لن يصل إلى العاصمة المصرية إلا في أواخر يونيو/حزيران، بعد أن رقد للراحة لبضعة أيام.

وفي تلك الأثناء، فإن ضباط بلاد الرافدين المحيطين بفيصل في دمشق يقومون بدعاية نشيطة ضد الوجود الإنجليزي في العراق

بل ويعدون لانتفاضة. وفي هذا السياق، ينفجر الإنجليز — الهنود ضد لورانس، المسئول في نظرهم عن جميع مصائبهم. وأخيراً، يجري آنذاك اكتشاف أن وزارة الخارجية تعتبر لورانس تابعاً لوزارة الحربية بينما تعتبره وزارة الحربية تابعاً لوزارة الخارجية! والحال أن كشف هذه الغرائب الإدارية، المعروفة تماماً للجميع، إنما يوضح أن لورانس يزعج الآن المسئولين البريطانيين وأن وجوده لم يعد مرغوباً فيه في فرساي، حيث سيجري ترك فيصل يتدبر أمره وحيداً مع الفرنسيين.

بعد أن تعب لورانس من كل هذه
الدهائن، فإنه يقبل وظيفة
باحث متفرغ (*fellow*) في أكسفورد

على أن لورانس، عندما يعلم أن السياسة البريطانية تتجه نحو وفاق مع الفرنسيين، يحاول التأثير بشكل مباشر على الرأي العام. ففي رسالة إلى التايمز في ٨ سبتمبر/أيلول ١٩١٩، يعرض مختلف التعهدات المقدمة إلى العرب ويدعو إلى مراعاة مصالح هؤلاء الأخيرين. وفي ٢٧ سبتمبر/أيلول، يرد على اللورد كيرزون، الذي طلب منه التدخل لدى فيصل لإفهامه أنه يتوجب عليه بصورة مطلقة أن يتفاهم مع الفرنسيين، بأنه لن يفعل ذلك إلا

إذا جرت إعادة نظر في شروط اتفاق سايكس - بيكو، بإلغاء مناطق النفوذ غير المباشر لصالح وصاية مشتركة فرنسية - إنجليزية على الدولة العربية: وكلما أصبح الإنجليز أكثر «ليبرالية» كلما تسنى إجبار الفرنسيين على أن يكونوا ليبراليين. ولأول مرة يحدد بدقة، في ذلك الرد، رؤيته السياسية: «إن طموحي الشخصي هو أن يكون العرب أول دومينيون لنا - وليس مستعمرتنا الأخيرة - ببشرة برونزية. إن العرب سوف ينقلبون عليكم إذا حاولتم سوقهم، وهم صلبون صلابة اليهود، إلا أن بالإمكان قيادتهم في كل مكان دون استخدام القوة، إذا كانت هذه القيادة مخصصة من الناحية النظرية. ومستقبل بلاد الرافدين جد عظيم بحيث إنه لو صار هذا البلد صديقاً لنا لأمكننا، من خلاله، أن نسـتميل مجمل الشرق الأوسط». على أن آراءه لم تتبّع.

إلا أنه في عين اللحظة التي تكف فيها الأوساط الرسمية عن الإنصات إليه، يصبح فجأة شهيراً. فلويل توماس، الصحفي الأمريكي الذي كان قد زار العقبة في مارس/ آذار ١٩١٨، يبدأ سلسلة من المحاضرات - العروض الفلمية حيث يروي القصة الرومانسية لهذا الإيرلندي، أمير مكة، الذي يوحد العرب خلال الحرب، وبطل آخر حرب صليبية. وفي غضون بضعة شهور، يحضر أكثر من مليون شخص عروض توماس. ودون أن يسعى

إلى ذلك كما هو واضح، يصبح «لورانس العرب»، المشهور عالمياً. وبهذه الصفة، يمكن اعتباره واحداً من أوائل مخلوقات أو ضحايا وسائل الاتصال الجماهيري. وفي الأشهر التالية، ينسحب لورانس ويواصل كتابة كتابه أعمدة الحكمة السبعة.

وفي ديسمبر/ كانون الأول، يتوصل فيصل إلى اتفاق جد ليرالي مع كليمنصو، تم التفاوض عليه من خلال لويس ماسينيون؛ إلا أنه خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٢٠، يشدد الفرنسيون والعرب موافقهم. ففي مارس/ آذار، يعلن فيصل نفسه ملكاً على سوريا، بما في ذلك فلسطين؛ وفي أبريل/ نيسان، يقسم مؤتمر سان ريمو الشرق الأدنى إلى انتدابين فرنسي (سوريا - لبنان) وإنجليزي (فلسطين - العراق)، دون مراعاة المطالب العربية.

في كل مكان، من مصر إلى العراق،
تهدر الثورة ضد الدولتين العظميين
الإمبراطوريتين

عندئذ يوحّد لورانس مجموعة كاملة غير رسمية من السياسيين والخبراء المدنيين والعسكريين الذين يدعون إلى إنشاء إدارة منفصلة لمعالجة مشكلات الشرق الأوسط، يحددها بأنها المجال

الممتد من وزارة الخارجية إلى وزارة شؤون الهند. وهو يستخدم شهرته الجديدة لشن حملة صحافية حول هذه الفكرة. ويعلن ثورة آسيا: إن الإمبراطورية البريطانية لم تتأسس إلا على القبول السلبي من جانب أكبر عدد من رعاياها؛ والحال أن الثورة البلشفية هي درس واقعي بالنسبة لآسيا العربية، إنها «التمرد الناجح لأشباه المتعلمين والفقراء». ومن ثم يجب هجر سياسة لن تؤدي إلا إلى استخدام للقوة غير مفيد.

وفي الأسابيع التالية، تنتشب الثورة في بلاد الرافدين. وفي يوليو/ تموز، يستولي الفرنسيون على دمشق ويطردون فيصل. وفي ١٨ أغسطس/ آب ١٩٢٠، يؤكد لورانس علناً أن الفرنسيين لم يفعلوا سوى التصرف في سوريا كما تصرفت وزارة شؤون الهند في بلاد الرافدين. وحملته الصحافية تبلغ ذروتها في ٢٢ أغسطس/ آب في مقال للأوبزرفر يهاجم فيه بعنف وتهكم السياسة الإنجليزية - الهندية في المنطقة: إن الأتراك لم يقتلوا في المتوسط غير ٢٠٠ عربي في السنة لكي يحافظوا على النظام؛ أما نحن فقد قتلنا للتو ١٠٠٠٠ منهم؛ «ولا يمكننا الأمل في الحفاظ على متوسط كهذا، فنحن بازاء بلد فقير يشكو من ضعف كثافة السكان!». والحال أن لورانس، الذي لا ينوي على أية حال مواصلة الاشتغال بالسياسة، يتلقى اتصالاً من تشرشل، الذي يتولى قيادة وزارة المستعمرات في

فبراير/ شباط ١٩٢١. وهو يقبل أن يصبح مستشار رجل الدولة الذي ينشئ إدارة للشرق الأوسط، تعد آسيا الناطقة بالعربية حقل عملها.

بالنسبة للورانس، فإن دور ملهم تشرشل هو بالدرجة الأولى وسيلة لتسوية المسائل العربية بما يتماشى مع أفكاره

تصبح تكلفة الاحتفاظ بشرق أوسط مضطرب باهظة بالنسبة للمالية البريطانية. بل إن الحديث يدور عن انسحاب في نهاية الأمر من بلاد الرافدين (كانت النفقات أفدح في هذه العملية مما في تمويل الثورة العربية). والحال أن واقع أن بريطانيا العظمى لا تستطيع تحمل تكاليف إدارة مباشرة لأراضيها العربية الجديدة إنما يسهل إلى حد بعيد مهمة لورانس. وشأنه في ذلك شأن تشرشل، فإنه يرى أن الوجود العسكري الإنجليزي يجب اختزاله إلى بعض وحدات النخبة المدعومة بسلاح طيران قوي، وأنه يجب إدارة المنطقة من خلال حكام محليين مدعومين بمستشارين بريطانيين.

وفي مارس/ آذار ١٩٢١، فإن مؤتمر القاهرة، الذي يجمع كل المسؤولين عن سياسة الشرق الأوسط، يقرر الخريطة السياسية

الجديدة للمنطقة. وبالرغم من الاحتجاجات الفرنسية، سوف يحصل فيصل على عرش العراق، بينما سوف يجري الاعتراف بعبد الله أميراً لشرقي الأردن منفصل عن فلسطين. وبعد اتفاق الأخوين، يجري تكليف لورانس بالحصول على تصديق الملك حسين عليه. وهو يقضي شهري أغسطس/ آب وسبتمبر/ أيلول في الحجاز لدى شريف مكة، لكن هذا الأخير يرفض بصورة مطلقة الموافقة على النظام البريطاني الجديد، وخاصة الانتداب الفلسطيني والوطن اليهودي. وبعد هذه الإقامة بالغة القسوة من الناحية المعنوية، يجري تعيين لورانس ممثلاً بريطانياً أول لدى عبد الله في شرقي الأردن. وهو يساعده في إرساء دعائم دولته الجديدة، ثم يرجع إلى إنجلترا في أواخر ديسمبر/ كانون الأول. وبالرغم من مناشدات تشرشل المتكررة، فإنه يقدم استقالته، سارية المفعول اعتباراً من أول مارس/ آذار ١٩٢٢. وهو لن يعود أبداً إلى أي بلد عربي.

في عام ١٩٢٢ هذا، يستخلص لورانس

درس مغامرته العربية

يؤكد لورانس «اعتقاده بأن إنجلترا خرجت من المسألة العربية نظيفة اليدين. والحال أن بعض المماحكين العرب — أكثرهم صخباً

موالون في زمن ما بعد الهدنة - قد رفضوا رأيي في هذه النقطة.
وكمعوقٍ لا يحتمل، أظهرتُ لهم جراحي - أكثر من ستين جرحاً
- تشهد ندوبها على معاناتي في خدمة العرب: إنها البرهان على
أنني قد عملت بإخلاص في معسكرهم. وقد وجدوني شخصاً عتيقاً،
وكنت سعيداً بالانسحاب من وسط سياسي لم أعتبره قط بالفعل
وسطي». وفي الوقت نفسه، يؤلف قصيدة يمهّد بها لأعمدة الحكمة
السبعة - على غرار سونيتات شيكسبير - ويهديها إلى س. أ.

وقد ظلت شخصية س. أ. لغزاً وطُرحت بشأنها تخمينات
كثيرة، يظل أكثرها رجحاناً إما داهوم أو تجريد ما - الثورة
العربية - أو الاثنان معاً. ويوضح هذان النصان بكثافة قوية إلى
أي حد كان انخراطه إلى جانب العرب حسيّاً، إلى أي حد كان
وجوداً جسديّاً، قبل أن يكون رؤية سياسية.

ويبقى أن لورانس هو أيضاً خادم للإمبراطورية البريطانية.
وهجماته العنيفة على السياسة الاستعمارية لحكومة الهند هي جزء
من الصراع المتواصل بين المستويين البيروقراطيين. وعداوته
للاستعمار الفرنسي تتراصف مع سياسة البريطانيين اعتباراً من
أواخر عام ١٩١٦، وهو لا يستطيع تصور مستقبل العرب المباشر
إلا ضمن إطار وصاية إنجليزية، قد تكون شديدة القسوة، كما سوف

يدرك ذلك فيصل و عبد الله في العشرينيات. وبالنسبة للمسئولين البريطانيين، فإن الهاشميين لا يبدوون غير نكران الجميل عندما يحاولون إيجاد استقلال لا يخضع للسياسة الإنجليزية.

وترجع أصالة رؤية لورانس إلى واقع أنه يرى أن وجود البريطانيين لا بد أن يكون مؤقتاً. ففي مستقبل قريب نسبياً، سوف يجلون عن هذه المناطق. وعندئذ سوف تصبح الدول الجديدة مستقلة تماماً. وبشكل ساخر، يوضح للفرنسيين، في ٧ أبريل/ نيسان ١٩١٩، أن الوطن القومي اليهودي في فلسطين، والذي سوف يصبح دولة يهودية، سوف يفصل مصر عن العالم العربي: «إننا نخشى كثيراً على مصر من حركة عربية قادمة من سوريا؛ عندما تخرجون منها، إذ لن يكون بوسعكم البقاء في سوريا بأكثر من أن يكون بوسعنا البقاء في بلاد الرافدين؛ وفي غضون أربعين عاماً، لا أنتم ولا نحن سوف نكون موجودين في تلك البلاد التي تقدم سكانها كثيراً. وبالنسبة لمصر، سيحدث هذا أيضاً، إن لم نحرص على قناة السويس، وأعتقد من جهة أخرى أننا سوف ننتهي إلى ترك الدلتا، مع الحفاظ على أمن القناة؛ وسوف يتوجب علينا في نهاية المطاف أن نترك هذه البلاد لحالها، كما فعلنا بالنسبة لمستعمراتنا».

وبشكل مباشر، يسهم عمل لورانس السياسي في تقسيم العالم العربي إلى عدة دول تمر بتحول سافر كما يسهم في انبثاق النزاع الإسرائيلي - العربي. أما في الأمد الأطول، فإن أسطورة لورانس العرب، القائمة على تأكيد البعث العربي والثورة ضد الأتراك، سوف تكون أداة دعائية قوية في العالم الغربي لصالح الحركة القومية العربية.

الفصل الخامس

محو الذات

بعد عام ١٩١٨، يصبح ت. أ. لورانس
كاتباً كبيراً من كتاب اللغة الإنجليزية

كان لورانس ما قبل عام ١٩١٤ يحلم باجتراح مآثر عظيمة،
على أنه لم يختر العمل العسكري ولا العمل في الخدمة العامة ولم
يبد أي ميل إلى الحياة السياسية. وبخلاف التاريخ والأركيولوجيا،
كان الأدب هو غرامه الوحيد. وكان يطمح إلى كتابة كتاب
«جبار»، على غرار نماذج الأدبية: الأخوة كارامازوف،
زرادشت، موبي ديك. وكانت فكرته الأولى أن يكتب تاريخاً
للحروب الصليبية، ثم تحول إلى سرد لرحلة في الشرق حول سبع
مدن، القسطنطينية، بغداد، القدس، دمشق... وقد استمد عنوانه من
آية في التوراة تذكر «الحكمة بنت بيتها. نحتت أعمدتها السبعة».
(سفر الأمثال، الإصحاح التاسع، الآية الأولى). إلا أنه خلال صيف
١٩١٤ أحرق الفصول التي كان قد كتبها بالفعل.

لقد غيرت الحرب كل شيء. وبوسع المرء أن يقوم فيها بعمل
إبداعى ليس بالكلمات وإنما بالرجال؛ وقد تحقق الحلم البطولى فى
كابوس أعمال عنف وجراح كانت حادثة ودرعا ذروتها. ومن عام
١٩١٧ إلى عام ١٩٢٢، لم يكتب له البقاء إلا بفضل سيطرته غير
العادية على الذات. ومنذ انتهاء الحرب، يعود إلى الأدب بوصفه
وسيلة لعلاج «سرطان الجسد»، بحسب تعبير لويس ماسينيون.
ومنذ حادثة الاغتصاب، لا يعود يحتل الاتصال الجسدى، ويبدو
أنه، حتى نهاية حياته، لن يعرف ما هي العلاقات الجنسية، إلا عبر
السمع. وكتابة سرد مغامرته هو أول علاج لـ«عُصاب
الحرب» هذا الذى شخصه معاصروه. إن كل صفحة من النسخة
الجديدة لأعمدة الحكمة السبعة قد كتبت فى الألم والحرمان.
والنتيجة أسرة وبالنسبة لكثيرين فنحن بإزاء واحد من الأعمال
الرئيسية فى الأدب الإنجليزى فى القرن العشرين.

ويطلب لورانس عون ونصيحة كتاب مشهورين. ويصبح
صديقاً لبرناردشو وأ. م. فورستر وتوماس هاردي وروبرت جريفز
وديفيد جارنيت ... ويحتفظ معهم بمراسلات تستمر لزمان طويل؛
وفى غضون خمسة عشر عاماً، فإن عدة آلاف من الرسائل،
المكتوبة بعناية، سوف تجعل منه واحداً من أعظم كتّاب الرسائل
الذين كتبوا بالإنجليزية. بل إنه، مع شارلوت شو، زوجة برنارد،
ينكب على تحليل غير عادى للذات.

لكن الكاتب يصبح في الوقت نفسه الجندي
من الفئة الثانية روس ثم الطيار
شو

ليس العلاج النفسي عن طريق الكتابة كافياً. وعدم تكيف
لورانس مع العالم يظل عقبة. عندئذ يقرر العمل على اختفاء
الليوتنانت - كولونيل لورانس. وفي عام ١٩٢٢، مستخدماً صلاته،
ينجح في التوصل إلى تجنيده كجندي بسيط في الطيران البريطاني
تحت اسم روس، مبرراً ذلك برغبته في أن يكتب كتاباً سوف يجد
موضوعه في السلاح الجوي الملكي. ومن الملاحظات التي سجلها،
سوف يولد عمل نشر بعد موته كتبه في السنوات الأخيرة من
حياته، هو قالب المصهر. لكن الصحافة تكشف هويته الجديدة وتثير
ضجة ضخمة بحيث إن السلطات، المحرجة، تسرحه في يناير/
كانون الثاني ١٩٢٣.

عندئذ يندرج لورانس، تحت اسم روس أيضاً، في سلاح
الدبابات، لكنه يجد نفسه هناك تعيساً بشكل بالغ. والحال أن
أصدقاءه، وهم سياسيون وكتاب، يتدخلون: وبعد إبرازهم للفضيحة
الرهيبية التي يمكن أن تترتب على انتحاره، ينجحون في التوصل
إلى إعادة ادراجه في السلاح الجوي الملكي، تحت اسم شو، في
أغسطس/ آب ١٩٢٥.

وهذه الحاجة إلى الاختزال، وهذا البحث عن موقع آمن لا يمكن فيه أن يسقط سقوطاً أعمق، وهذا الالتزام بإعادة تعلم الخضوع، إنما تشهد كلها على ضغوط نفسية رهيبية. وعندما يتضح أن كل هذه التدابير غير كافية، يخالط أناساً عاديين، تحت ذرائع مختلفة، سعياً إلى جلد ذاته.

على أنه يجد وسط الجنود البسطاء تضامناً وحمائية أصبحا ضروريين بالنسبة له. وفي المقابل، يستخدم صلاته السياسية للعمل على تهذيب الانضباط العسكري. وهو يصف تجربته الجديدة بلغة مماثلة للغة التي استخدمها في وصف حياته في الصحراء: «هنا، كنت متروكاً لقواري الخاصة، ولم يكن هذا يسيراً: لقد تطلّب مني اكراه جسدي العاجز إلى ما فوق قوة تحمله تقريباً، سعياً إلى تحمل منافسة شبابي. ومن منظور الذكرى، سوف يظهر المركز [مركز تدريب الجنود] بالنسبة لي دافئاً؛ تجربتي الأخيرة، دون شك. فهناك على الأقل، كتب لي أن أبقى حياً، حتى وإن لم يكن هذا تماماً من دواعي فخري. مع أنني كنت أحياناً أضحك بينما كنت أتوجع بأقوى ما أستطيع في دفتر يومياتي. لقد وصلتُ هناك إلى أنني لن يحدث لي أبداً بعد الآن أن أخاف البشر. فهنا، تعلمت أن أصبح متضامناً معهم. ليس لأننا جد متماثلين أو سوف نصبح متماثلين. لقد ولجت الأمل الكبير في مشاطرة ميولهم وطرائقهم وحياتهم: لكن طبيعتي

تتابع الأشياء في المرأة التي تميل إليها، وليس بنظرة مباشرة. ومن ثم فلن أكون أبداً سعيداً بالكامل، سعادة أولئك الناس الذين يجدون رحيق حياتهم في الهياج العميق لبعض الغدد المنوية. ويبدو أنني أستطيع الاقتراب منهم إلى أبعد حد عبر الإنابة، باستخدام نفوذني (الذي أحسنت شحذه التجربة والنجاح في الحرب وكديبلوماسي) لمساعدتهم على الاحتفاظ بسعادتهم الساذجة في مواجهة قادة الفرق».

وهذا التفهق حيال الذات وهذا الانضباط (بكل معاني المصطلح) المفروضان هما أيضاً انبعاث ما استهواه دائماً: توبة العصر الوسيط وفاقة البدوي؛ طريقة لكي يحيا من جديد في الثكنة وفي الحدائث أزمنة أخرى وأمكنة أخرى. وخلافاً لنماذج، يرفض كل تجاوز سماوي ويقتررب مسلكه من شكل معين من أشكال العدمية.

الجندي شو أسير دائم لأسطورة

الليوتنانت - كولونيل لورانس

لم يكن مقررأ أن تُنشر أعمدة الحكمة السبعة في حياته. ومن عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٥، يستغل لورانس وقت فراغه في

الإعداد لطبعة عن طريق الاشتراك، من مائتي نسخة، مخصصة للشهود وللأصدقاء. ولتسوية نفقاتها، يقبل ظهور طبعة مختصرة، التمرد في الصحراء، حيث يجري استبعاد الجزء الخاص بالاعتراف الشخصي. وأمام استعادة الشهرة التي عادت عليه بها هذه الطبعة، لا يشعر بالسخط حيال إرساله إلى الهند في يناير/كانون الثاني ١٩٢٧.

وإذ يجري استخدامه في وظائف مكتبية، معزولاً في مواقع نائية، يبدأ في أن يستعيد هناك نوعاً من التوازن. وهو يضطلع بأعمال نقد أدبي إلى جانب ترجمة الأوديسة وأنطولوجيا شخصية للشعر الإنجليزي. لكن الصحافة تكتشف من جديد وجوده في الهند: ويجري اتهامه دائماً بأنه جاسوس ومثير انتفاضة من جانب قبائل أفغانية. وإذ تجد السلطات نفسها عاجزة عن مواجهة التكهنات التي أثارها ذلك الذي تسميه الصحف بـ«آخر وال لبريطانيا العظمى في الهند»، تقوم بترحيله على وجه السرعة إلى إنجلترا في يناير/كانون الثاني ١٩٢٩.

وفي الأعوام التالية، يجري إلحاق شو بالقواعد البحرية للسلاح الجوي الملكي في إنجلترا ويخدم كميكانيكي للطائرات المائية. بل إنه يعمل في تجهيز زوارق سريعة ذات محركات لاستخدامها في

عمليات الإنقاذ في البحر. وهو يرتب بيتاً في الريف ويتحمس
للسرعة على الدراجات النارية. وتتحسن حالته النفسية، لكن
الأسطورة تطارده دائماً: إن الفرنسيين يرونه في جميع الانتفاضات
المعادية للاستعمار في العالم الإسلامي: والسوفييت يذكرون اسمه
في محاكمات موسكو، بوصفه منظم مؤامرات ضد ديكتاتورية
البروليتاريا، وتركيا الكمالية تتهمه بتنظيم مؤامرة إسلامية...

وفي فبراير/ شباط ١٩٣٥، يترك السلاح الجوي الملكي، بعد
انتهاء مدة عمله. وإذ يجد نفسه ملاحقاً دائماً من جانب الصحافة،
يضطر إلى الاختباء في لندن. وأخيراً، يتوصل مع مديري الصحف
إلى أن يتركوه في سلام. وهو يرفض العروض المختلفة المقدمة
إليه لتولي مناصب مسئولية. فطموحاته الوحيدة تتصل بمجال
الأدب. وفي ١٣ مايو/ أيار ١٩٣٥، خلال نزهة على الدراجة
النارية، وحيال خطر صدم طفلين على دراجة، يلقي بنفسه خارج
الطريق لتفاديهما ويسقط من على دراجته النارية التي كانت في
أقصى سرعتها. وهو يموت بعد ذلك بستة أيام بسبب إصابات
دماغية. ويتم تشييع جثمانه في ٢١ مايو/ أيار. وحملةُ النعش شهود
لعهود مختلفة من حياته: ستورز ونيوكومب إلى جوار كيننجتون،
عريف، جندي بسيط وأحد الجيران. وتشهد تشييع الجثمان
شخصيات سياسية مثل ونستون تشرشل والليدي أستور وعسكريون

وكتاب. ويوجه الملك جورج الخامس رسالة إلى شقيقه الأصغر،
أرنولد لورانس: «إن اسم أخيك سوف يحيا في التاريخ ويعترف
الملك ممناً بأهمية خدماته لبلاده ويأسف لمأساة نهاية هذه حياة
كانت ما تزال ثرية بالوعود».

كل شيء كان يمكن أن يوحى بأن
أسطورة لورانس محكوم عليها
بالتلاشي، في عالم يتجه نحو حرب
عالمية جديدة. لكن شيئاً من ذلك
لم يحدث

في حياة لورانس، كتب سيرته ثلاثة من كتاب السير. فأولهما،
لويل توماس، قد اخترع الملك غير المتوج لبلاد العرب. وثانيهما،
روبرت جريفز، وهو كاتب وشاعر شهير، قام في عام ١٩٢٧
بعمل صحافي مستعيداً بسرعة أعمدة الحكمة السبعة، المنشورة
آنذاك في مائتي نسخة للمميزين، وقدم لورانس بوصفه عبقرياً.
وثالثهما، ليدل هارت، وهو مُنظّر شهير للفن العسكري، اهتم في
عام ١٩٣٤ بتجهيز نفسه بالوثائق حيال الشخصية التي يتحدث عنها
وقارنها بمارلبورو ونابوليون.

وبين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٩، يكتشف الجمهور أعمدة الحكمة السبعة - التي يلقي نشرها نجاحاً كبيراً -، ومراسلات لورانس مع كاتب سيرته وجزءاً من رسائله التي جمعها صديقه ديفيد جارنيت وعدداً معيناً من برقياتة خلال زمن الحرب. وفي عام ١٩٥٥، يجري نشر قالب المصهر، ثم رسائل إلى أسرته. وهكذا يكفل الكاتب بقاء البطل بعد موته، في حين أن حياة الطيار شو تفتن جيلاً بأكمله من المتقنين المشهورين. وفي فرنسا، فإن كتاباً مثل مالرو أو سارتر يطرحون مسألة معنى حياة هذا الرجل جد الملغزة.

ومنذ ذلك الحين، تصبح السير والدراسات المكرسة للورانس جنساً أدبياً قائماً بذاته. ومنذ الخمسينيات، تصبح شخصية هذا الرجل محل تساؤل: لقد كان دجالاً وكثير من الأفعال التي يزعمها ليست غير اختلاقات. ويجري اكتشاف جوانب مزعجة في شخصيته، الجنسية المثلية المكبوتة أو غير المكبوتة، السادو-مازوخية. وإذا كانت فكرة الصليبي الأخير تتهاجر أمام التعقد المخيف لشخصية الرجل، فإن الهوى التي يمكن رصدها فيها ما تزال مصدر فتنة كبرى: أليس رمزاً لعذابات القرن العشرين؟

بل إن فيلم ديفيد لين، لورانس العرب، في عام ١٩٦٢، والذي يهب الأسطورة حياة ثانية باستخدامه الرائع للبيئة الطبيعية وأداء بيتر

أوتول العظيم، إنما يبرز الالتباسات التي نلاحظها عند لورانس في ذلك العصر. إن التشويهاً التاريخية عديدة والتسلسل الزمني مقلوب، وبعض الشخصيات يجري الخلط بينها وشخصيات أخرى، وليس هناك لا قبل ولا بعد، والأهم من ذلك أن الفيلم يجعل من الرجل شخصاً يتلذذ بالعنف ويحب القتل، وهو ما لم يكن قط، فيما يبدو، واقع الحال. وهذا العمل، الذي ميز تاريخ السينما، يعمم بشكل نهائي الصورة المزعجة لرجل الصحراء على حساب جوانب أخرى في حياته.

وكان لا بد من انتظار عام ١٩٦٨ وفتح الأرشيفات البريطانية حول هذه الفترة لتكوين رؤية أخرى عن الشخصية. وتدرجياً، يكتشف المؤرخون أن الرجل، في كتاباته العلنية، كان بالأحرى مخلصاً للحقيقة التاريخية وأن الكثير من أغاز مسيرته إنما ينبع من واجب التحفظ الذي فرضه على نفسه. وفي عام ١٩٧٦، ينشر محلل نفسي مثل ادوارد ماك أول تحقيق سيكولوجي جاد عن الرجل. واعتباراً من الثمانينيات، فإن الكاتب هو الذي يأتي في الصدارة مع السماح بالاطلاع على رسائله الأكثر حميمية إلى شارلوت شو.

ومن الواضح أن اسمه قد بقي لأن مغامرته كانت بالدرجة الأولى مغامرة شخصية، بما في ذلك في طموحه الجنوني إلى خلق

أمة جديدة. وفي عصر الجماهير والمذابح الجماعية، جسّد عودة مفارقةً إلى العصر الوسيط الأسطوري. وفي وجه المتقنين المياليين إلى الحديث عن المطلق وإن كانوا مشغولين بالأباطيل المادية التافهة، طرح تخيله السافر عن كل شيء في السنوات الأخيرة من حياته. وفي وجه غرب مغرم بالاستشراق، كان أول من يطوح فكرة الذنب. وفي حين انه كان الأبعد في البحث عن الآخر في أصالةٍ وغبابةٍ جذريتين، فقد أكد أن الفصل الأوروبي في تاريخ الشرق بسبيله إلى الانتهاء. ولأن لورانس كان بالدرجة الأولى إنساناً وحيداً فإن أسطورته اليوم تفتن ملايين الناس.

[٣]

مكانة لويس ماسينيون
في سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي
خلال عهد الجمهورية الثالثة

[129]

باستيلاء فرنسا على الجزائر، وجدت نفسها مسيطرة على جماعة سكانية مسلمة ضخمة بينما واصلت علاوة على ذلك سياسة نفوذ قديمة العمر في الشطر الآسيوي من الدولة العثمانية وفي مصر. وخلال القرن التاسع عشر، سوف نجد أن واضعي السياسة الفرنسية في هذه المناطق كانوا من حيث الجوهر رجالاً من الساحة، فهم مدراء وعسكريون ومبشرون وديبلوماسيون، بينما كانوا في المتروبول سياسيين، وكتاباً اجتماعيين. وحتى العقود الأخيرة للقرن، كان الجامعيون بالمعنى الأصيل للمصطلح غائبين عن النقاش حول التدابير الواجب اتخاذها في أرض الإسلام.

والسبب الرئيسي لهذا الغياب هو ضعف الجامعة الفرنسية خلال الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر. فبالرغم من الجهود التي كانت قد بدأت في عهدي عودة الملكية وملكية يوليو/ تموز، كان الشطر الرئيسي من الفكر الفرنسي ما يزال يُنتج في أماكن

أخرى غير مجال الجامعة. والحال أن الإمبراطورية الثانية قد استوعبت هذا الواقع وردت عليه بإنشاء المدرسة العملية للدراسات العليا. على أن إنشاء جامعة حقيقية هو من فعل الجمهورية الثالثة التي تسنى لها، بفضل عمل دينامي وفي إطار المواجهة مع ألمانيا، اختراع نموذج جديد للجامعة سرعان ما أصبح عنصراً من عناصر تكوين النظام الحاكم إلى الدرجة التي أمكن عندها الحديث عن «جمهورية الأساتذة».

ويمكن القول إن لويس ماسينيون ولد في عام ١٨٨٣، في اللحظة التي انخرطت فيها الجمهورية في هذا المشروع الضخم وإنه يبلغ سن الرشد حين يبدأ هذا المشروع في إتيان ثماره.

وفي مجال الدراسات الإسلامية، اتجهت الجمهورية إلى إحياء وتجديد مدرسة اللغات الشرقية الحية التي اتخذت مقراً لها في شارع ليل في عام ١٨٧٣ بينما تلاشت مدرسة اللغات الحديثة في عام ١٨٩٣. والحال أن لويس ماسينيون سوف يكون تلميذاً في هذه المنشأة المجددة.

وفي تلك الأثناء، تتساعل الجمهورية عن تطورات العالم الإسلامي، وهو مصطلح يظهر نحو عام ١٨٨٠ ويصبح شائع الاستعمال في أواخر القرن. ففي أعقاب مؤتمر برلين المعقود في عام ١٨٧٨، ظهر تياران سياسيان في الدولة العثمانية: نوع من

نزعة استقلالية للولايات العربية غير محددة تحديداً جيداً، وما يسمى بالجامعة الإسلامية، وهي مصطلح يدخل في الاستعمال نحو عام ١٨٨١. والحال أن السلطان عبد الحميد يجعل من الجامعة الإسلامية الأداة الجديدة لتأكيد تلاحم الدولة ويعتمد بشكل خاص على عرب الدولة من باب المعارضة للقوى الأكثر تعلمناً والتي سوف تسمى بحركة تركيا الفتاة التي يتركز نشاطها التجنيدى بشكل خاص على الأتراك. ولا تمثل الجامعة الإسلامية هجراً للإصلاحات العثمانية، فهي تهدف بالأحرى إلى أسلمتها بحيث يتسنى تحقيق قبول أوسع لها. وهي [الجامعة الإسلامية] تستند إلى فكرة رئيسية كبرى: وحدة الإسلام حول سلطان - خليفة القسطنطينية، وهي وحدة تتجاوز الدولة العثمانية وحدها لتشمل كافة المسلمين، أكانوا ما يزالون مستقلين أم أصبحوا خاضعين للسيطرة الاستعمارية. والحال أن الواقع الجديد المتمثل في إنشاء طرق مواصلات حديثة، والذي سمح للمسلمين المتباعدين بعضهم عن البعض الآخر بعدة آلاف من الكيلومترات بأن يتواصلوا فيما بينهم، هو الذي يفسر ظهور مفهوم العالم الإسلامي والذي أصبح وجوده الملموس ملحوظاً عبر جمع الأموال في كل مكان يوجد فيه مسلمون لإنشاء سكة حديد الحجاز، الهادفة من الناحية الرسمية إلى تأمين الحج ومن الناحية شبه الرسمية إلى استعادة السلطة العثمانية في شبه الجزيرة العربية.

ومن الناحية الاجتماعية، تركز الجامعة الإسلامية على الطرق الصوفية الكبرى التي تصبح من ثم مصدر انزعاج كبير بالنسبة للسلطات الاستعمارية التي تواجهها في كل مكان: إن رسل يلدز (قصر السلطان عبد الحميد) إنما يلعبون، في الاستيهادات الكولونيالية، عين الدور الذي سوف يلعبه فيما بعد رسل الأممية [الشيوعية]. ومن ثم فإن تعلق الجامعة الإسلامية هذا بالصيغ التقليدية لممارسة الإسلام لا بد له من أن يحول دون أي خلط مع اتجاه الإصلاح الإسلامي (أو السلفية) الذي يدعو هو أيضاً إلى وحدة الإسلام. لكننا هنا [مع اتجاه الإصلاح الإسلامي] بازاء تجديد للإسلام عن طريق عودة إلى صيغته الأصلية المميزة للأزمة الأولى: فهذا النوع من البروتستانتية الإسلامية (والتشبيه يقوم به المعنيون أنفسهم) مناوئ بقوة لممارسات الطرق الصوفية المتهممة بالمسئولية عن تأخر الإسلام. وفي الأراضي الواقعة تحت سلطة السلطان، تجري مراقبة ومحاصرة السلفية؛ ومركزها الحقيقي هو مصر تحت الاحتلال البريطاني مع محمد عبده (الذي يموت في عام ١٩٠٥) وتلميذه رشيد رضا (الذي سوف يموت في عام ١٩٣٥). وفي اقاماته الأولى في الشرق، يستوعب لويس ماسينيون خطورة شأن الطرق الصوفية وعلاقتها الوثيقة مع طوائف التجار والحرفيين، لكن تردداته، في مصر كما في شرقي البحر المتوسط، سوف تكون خاصة على الأوساط السلفية (آل الألووسي في بغداد ورشيد رضا وخاصة شقيقه في مصر).

● سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي

أدت سياسة تحقيق الاستقرار الحميدية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بصورة مؤقتة، إلى إنهاء الغليان السياسي والديني في المشرق العربي في حين أن الصراعات على النفوذ والتي خاضتها الدول الأوروبية قد تم احتواؤها من جانب السلطات العثمانية التي لعبت على التنافسات بهدف تحييدها. بيد أنه اعتباراً من ١٨٩٦ - ١٨٩٧، مع الحرب اليونانية التركية والأحداث الأرمنية، عادت الجامعة الإسلامية إلى جدول أعمال الشواغل الاستعمارية وذلك بقدر ما أن تحالف العثمانيين مع ألمانيا الإمبراطورية قد شكل بالنسبة لفرنسا وإنجلترا «آلة حرب» جرمانية تهدد بخلق متاعب في ممتلكاتهما. وبينما كانت فرنسا بسبيلها إلى تحقيق فتح الصحراء والانخراط في سياسة هجومية حيال المغرب، فإن الأوساط الحاكمة للجمهورية الثالثة قد أصابها الانزعاج من التحولات الجارية في العالم الإسلامي.

والحال أن جابرييل هانوتو، وزير الشؤون الخارجية السابق، يدعو، في سلسلة من المقالات المنشورة في مارس/ آذار ١٩٠٠، إلى إجراء استقصاء شامل حول الإسلام :

«حسناً، مادمنأ قد قبلنأ تحمل هذه المسئولية وحصلنأ على هذه السلطة، فلنفكر تفكيراً حكيماً في وسائل ممارستها. فلنسال العرفين ولنسال من عاينوا الأمور؛ ولنطلب منهم بحكم ما يميزون به من كفاءة أن يحرروا نوعاً من كتاب نموذجي ومن كتاب إرشادي سياسي يوجز مبادئ علاقاتنا مع العالم الإسلامي. إن كتيبة بأكملها من المنظرين ومن الأشخاص العمليين - الموظفين والضباط والأساتذة والمهندسين والزراعيين والمستوطنين - كانت أو ما تزال على اتصال مستمر مع المسلم وتجعل من حياته ومن شواغله موضوع دراستها. ومن جهة أخرى، بوسع المسلمين هم أنفسهم إفاقتنا. ولو سألناهم فسوف يجيبون. ويمكن إجراء استقصاءات حول كل شيء، بما في ذلك الموضوعات التي يبدو أنها الأكثر وضوحاً. وهي من أكثر الموضوعات التباساً. لماذا لا نلجأ إلى الوسيلة الوحيدة التي تسمح بتسليط ضوء ساطع عليها ونشر هذا الضوء، في الوقت نفسه، حتى يشمل جميع أولئك الذين لا يرجون غير الإفاة من أشعته؟ وعلى أثر هذا الاستعلام الواسع سوف يجري تحرير تعليمات محددة من شأنها، حال توجيهها إلى كافة موظفينا وإبلاغها إلى جميع مستوطنينا ونشرها في كل مدارسنا، محو الكثير من الأخطاء والأساطير وتذليل الكثير من الصعوبات وتدارك الكثير من السقطات التي غالباً ما يصعب علاجها. إن نوعاً

من «كتاب مصاحب» عن مستعمرات فرنسا سوف يكون، بالنسبة للجميع، صنيعاً عظيماً وسوف يسمح لنا بأن نحيا، ربما لمدة نصف قرن، على خبرة الكثيرين من الفرنسيين الصالحين والمستعربين الجيدين الذين، في تشنتهم وغياب الارتباط فيما بينهم، غالباً ما يذرفون، في الوحدة، دموعاً مرة على الأخطاء التي غالباً ما يكون بوسع كلمة واحدة السماح بتجنبها».

ومن هذا التيار الفكري تنبثق فكرة محددة، هي فكرة سوسولوجيا العالم الإسلامي، التي تتجسد في شخصية ألفرد لوشاتيليه، وهو عسكري صار جامعياً، أنشأ الكرسي الذي يحمل الاسم نفسه وأنشأ في عام ١٩٠٧ مجلة ريفي دي موند ميزيلماس. ولا ينفصل عمله عن التغلغل الفرنسي في المغرب (الحماية المغربية هي التي سوف تُموّل كرسيه). وهناك جامعي آخر منخرط في هذا العمل الخاص بجمع المعلومات، هو أوجستان برنار، أستاذ الجغرافيا في السوربون. وهاتان الشخصيتان هما «المعلمان»، بالمعنى الجامعي للمصطلح، للشاب لويس ماسينيون. وفي المجال الكولونيالي بالمعنى الأصيل للمصطلح، يعد ليوتي قريباً من دائرتيها ومن شواغلها. والحال أن بعض الأفكار الرئيسية تفرض نفسها منذ ما قبل ١٩١٤: إن الأسلوب الذي تم به فتح الجزائر كان خطأ باهظ التكلفة يتوجب تفادي تكراره؛ إن

المجهود الحربي كان مؤلماً بشكل خاص وذلك بسبب المقاومات المحلية ثم إن استيعاب المديرية الجزائرية في المتروبول يطرح المشكلة غير القابلة للحل من الناحية العملية والخاصة بدمج عدة ملايين من المسلمين في الأمة الفرنسية وفي الجمهورية؛ إن هناك ضرورة لصيغة أكثر رهافة للفتوحات وللسلطات، ومن ثم أكثر احتراماً للسكان المسلمين؛ إن الحماية التونسية لعام ١٨٨١ تبين الطريق الذي يجب إتباعه و«سياسة المراعاة» هذه هي السياسة الرئيسية التي يتوجب تطبيقها في المغرب. وفي شرقي البحر المتوسط، يتعين على فرنسا الحفاظ على سياستها الخاصة بحماية الأقليات المسيحية التي تصبح فرانكوفونية بشكل متزايد باستمرار وتوسيع هذه السياسة بحيث تشمل أقليات مسلمة كالعرب وذلك مع السعي في الوقت نفسه إلى كسب تصالح الأوساط المسلمة السننية التي تؤلف الغالبية.

وهذه التأمّلات التي تجمع بين الدراسة السوسولوجية والفعل السياسي في الساحة تأخذ بعين الاعتبار العالم الإسلامي باعتباره شيئاً عالمياً وتجد ترجمة لها في عام ١٩١١ في إنشاء اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشؤون الإسلامية C.I.A.M. والتي تتألف من دبلوماسيين وعسكريين وإداريين وجامعيين. وهي «مكلفة بتحديد مناهج سياستنا الإسلامية والسعي إلى حل للشؤون

المشتركة لدى مختلف الإدارات المعنية فيما يخص المسائل الإسلامية».

وبناء على ذلك، تحرر [اللجنة] طلبات تعرضها على الحكومة، وهي طلبات تترتب عليها نتائج بوجه عام.

وبشكل موازٍ للجنة، يجري استعراض واسع لصحافة العالم الإسلامي في وزارة الشؤون الخارجية وفي وزارة المستعمرات وغالباً ما يخدم هذا الاستعراض ملفات تحضيرية لأعمال اللجنة.

واعتباراً من ثورة تركيا الفتاة في ١٩٠٨ - ١٩٠٩، يدخل الشرق الأدنى من جديد في فترة غليان سياسي بينما تهتم الدول [العظمى] بتعزيز مواقعها هناك. وتتسارع الأحداث في أعوام ١٩١١ - ١٩١٣ مع الحرب الإيطالية - العثمانية، ثم مع الحربين البلقانيتين الأولى والثانية. ثم إن خلع عبد الحميد في عام ١٩٠٩ قد زاد من سخط العرب. لكن صياغة ما يميل إلى أن يكون نزعة استقلالية عربية تعد مسألة بالغة التشوش. إن أطروحات دينية بشكل محدد كمنازعة شرعية الخلافة العثمانية قياساً إلى خلافة عربية أكثر شرعية إنما تتبثق من الوسط السلفي بشكل محدد والذي أعرب عنها في البداية لكي يكسب إلى صفها مجمل الساخطين؛ كما تجري المطالبة بمساواة اللغة العربية مع اللغة التركية كلغة

رسمية للدولة، ويجري اتهام «النير العثماني» بأنه مسئول عن انحطاط الولايات العربية؛ وتجري المطالبة بلا مركزية حقيقية للسلطات الإدارية والسياسية.

وخلال تلك الفترة، لا يشارك ماسينيون الشاب في السياسة [الفرنسية] حيال العالم الإسلامي لكنه مدفوع بشكل طبيعي تماماً إلى تقديم شهادات إلى أساتذته مثل برنار ولوشاتليه وإلى تحرير مقالات لمجلة ريفي دي موند ميزيليا. وفي مصر، يتردد على الأوساط السلفية التي تنشط نشاطاً سياسياً ضخماً (إن رشيد رضا هو أحد محركي حزب اللامركزية العثمانية). ومن المرجح للغاية أنه قد تأثر بقوة التيارات الحداثية المنبثقة من السلفية والتي تسعى إلى تطوير الشرع الإسلامي في اتجاه صيغ أكثر انفتاحاً، خاصة فيما يتعلق بحالة المرأة. لكن المرء لا يفلت من وسطه ومن عصره. والحال أن مجرد وجود لويس ماسينيون في هذه الجامعة الخاصة التي هي جامعة القاهرة الأولى إنما يبدو بوصفه نقطة كسبتها فرنسا في صراعها ضد إنجلترا من أجل النفوذ لدى النخب المصرية.

وهكذا ففي ١٠ إبريل/ نيسان ١٩١٣، تستمع اللجنة الوزارية المشتركة إلى تقرير من القومندان سانت ايكسوييري الذي كان قد

قام مؤخراً ببعثة في بلاد الشام وفي مصر. وهو يستحضر مناخ الليبرالية هذا الذي يتوجب تشجيعه:

«من الواضح أن هناك تراجعاً للإسلام أمام زحف الحضارة الأوروبية. وسعيًا إلى تدارك هذا الوضع، فكر رجال مصر الفتاة في تبسيط شريعة محمد وذلك بفصل القانون المدني عن الشريعة. أمّا رجال تركيا الفتاة الذين قطعوا شوطاً أبعد فقد سعوا إلى تحرير حكومتهم من التأثير القرآني. وقد أثاروا عندئذٍ ضدهم مشاعر المؤمنين العميقة. واستبعدهم كمال باشا من السلطة. لكنهم تمكنوا عبر حركة عنيفة من استعادة السلطة التي يحتفظون بها من جديد في الوقت الراهن. وفي سياق هذه الأحداث ذات الطابع الداخلي، كفت القسطنطينية عن أن تكون المركز الوحيد للإسلام؛ وظهر اتجاه نحو خلق مراكز إسلامية في مختلف البلدان المسلمة. وهذا واقع لاقت بالنسبة للحكومات الأوروبية التي تملك أراضي تعد غالبية السكان فيها مسلمة. وسوف يتعين استغلال الظرف للتأثير على الإسلام في هذه المناطق بإدخال تعديل طفيف على طابعه العام، سعيًا إلى خلق إسلام محلي خاص بكل بلد من البلدان المعنية. ووصولاً إلى تحقيق هذه الغاية، سوف يكون من الأهمية بمكان إنشاء مراكز دراسات حيث يكون بوسع المسلم، دون أن يغادر البلد الذي يقيم فيه، أن يجد إلى حد ما التعليم الذي يجب اكتسابه وحرية نسبية مقيدة بشكل واضح في المقابل، عبر المراقبة

غير السفارة والتي تستوجبها يقظة الدول الأوروبية، ويتعين على التعليم أن يتجاوز إلى حد ما البرنامج الإسلامي الخالص الذي تقتصر عليه الجامعات المحمدية العتيقة. إلا أنه سيكون من الضروري ألا يكون تدخل السلطة سافراً جداً؛ إذ لا يمكن ممارستها إلا عبر الأئمة الذين سيتوجب توصيل الاتجاهات التي يجب تقديمها إلى أسماعهم؛ ويجب تعليم رجال أذكى يتولون، حالما يصبحون أساتذة، تدريس نظريات أكثر ليبرالية من تلك الرائجة في المؤسسات الإسلامية، بحيث تبدو تلك النظريات وكأنها نابعة منهم هم أنفسهم.

«ويتعين، بشكل خاص، أن تكون فرنسا أكثر تسامحاً؛ ذلك أن طريقتنا في الحكم لها سمعة سيئة لدى المسلمين. وفي بلاد الشام، سوف نجد أن مشايخ جد أذكى، نجحوا عبر عدد من الرسل في تحييص المزاعم غير المواتية فيما يتعلق بنا، قد تمكنوا من التعرف على وقائع مؤسفة من المفترض أنها حدثت عندنا. ويحكم المحمديون حكماً قاسياً على نظام حكم الإدارة الاستعمارية. وهم يأسفون لأنه في الجزائر بوجه خاص يجري منع الكثيرين من الراغبين في الحج من الذهاب إلى مكة. وفي هذا السياق، نجد أن الإنجليز قد أقاموا، في مصر، نظاماً يستحق الالتفات.

«إنهم يطلبون من الراغبين في الحج دفع تأمين احتياطي قدره خمسة جنيهات. وتتولى جمعيات تسليف هذا المبلغ للمعنيين لكنها

تجري قرعة بين الطلبات؛ ومن يحصل على السلفة وتوجد وثائق عنه لدى هذه الجمعيات إنما يتم كسبه إلى النفوذ الإنجليزي بحكم السبب المباشر المتمثل في المراعاة التي تعود عليه بحكم أنه كان في مكة. والحال أن سياسة الإنجليز المتساهلة قد أملت عليها عليهم، في الحقيقة، رغبتهم في كسب تصالح مسلمي الهند، لكنهم سعوا، في هذه الروح، إلى ابتكارات من المفيد التعرف عليها.

«فقد حاولوا أن ينشئوا في الأزهر تعليماً أكثر ليبرالية من تعليم الجامعة الإسلامية. وقد فشلوا في ذلك أمام اعتراض المسلمين المشايخ: لكنهم قاموا عندئذ بإنشاء جامعة مصرية دعوا إليها أساتذة أكفاء، من بينهم ماسينيون. وهكذا حصل الإنجليز على بعض النتائج.

«ولكن إذا كان المؤمنون المشايخ مازالوا يضعون العراقيل في وجه مشاريعهم، فإنهم قد نجحوا في إنشاء مدرسة للقضاة؛ ولكي يجتذبوا الطلاب إليها، فإنهم يقدمون إليهم دون ضجيج منحا تسمح لهم بارتداء ملابس أنيقة. وعلاوة على ذلك، فإنهم يقدمون لهم أمارات اهتمام معينة. وقد حدثت احتجاجات وهجر الطلاب جامعة الأزهر لصالح مدرسة القضاة. وعندئذ قررت إنجلترا، لكي تضح حداً لذلك، إجراء اختيار بين المرشحين الراغبين في دخول المدرسة.

«لكن هذا الاختيار عينه إنما يعطي هبة لأولئك الذين يتم قبولهم».

• الحرب العالمية الأولى

مع الحرب العظمى، سوف يطرأ تغير على وضع لويس ماسينيون - فهو في البداية يعمل في الخدمة الصحافية لوزارة الشؤون الخارجية، ثم يجري إيفاده إلى الدردنيل كمترجم. وفي مارس/ آذار ١٩١٧ يتم إلحاقه ببعثة بيكو. وبعيداً عن أن يكون عميلاً للاستخبارات، فإنه يشارك بنشاط في العمل السياسي المتمثل في التنسيق بين الفرنسيين والبريطانيين والأشراف في إطار الثورة العربية. والحال أن المصادر المتاحة حالياً لا تسمح بتحديد جيد لما كان عليه عمل ماسينيون في بعثة بيكو. وبالمقابل، فمن الواضح تماماً أنه يتبنى بالكامل المنظورات التي هي منظورات رئيسه ومنظورات نظيره البريطاني، السير مارك سايكس: وهي تتعلق بتوفيق طموحات فرنسا وإنجلترا مع بعث القوميات المحررة من الدولة العثمانية. وهذه القوميات، العربية واليهودية والكردية والأرمنية، سوف تتطور تحت الوصاية الخيرية من جانب فرنسا وبريطانيا العظمى قبل أن ترقى إلى استقلال سافر وتام.

وعن سنوات الحرب [١٩١٤ - ١٩١٨]، لا نحوز، خارج المراسلات، غير تقرير، مؤرخ في ٢٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧، حول الفيلق العربي الذين كان بسبيله إلى التكون في مصر

تحت قيادة فرنسية وبريطانية. ويهتم ماسينيون على نحو خاص بمكانة المسيحيين [في الفيلق] (٦٤ من ٤٢٠ شخصاً) الذين كانوا جد متسرعين إلى إعلان «نزعتهم الانفصالية القديمة لجماعة مضطهدة»، كما يهتم بالمشاعر الجماعية التي تشكل مصدر الإهم لهذه الوحدة. وهو يرصد الروح العشائرية القوية، خاصة بين العناصر ذات الأصل البدوي كما يرصد النزعة القومية العربية:

«الشعور الجماعي الثاني، الحائز لإعمال فكر أكثر ونو الأصل الفكري والتربوي، وإن كان مخلصاً ومثالياً، هو الشعور القومي العربي. وهو هنا هاشمي من الناحية السياسية. وهو يُخَيِّس بشكل سافر في الملك اللواء الحالي للأمة العربية. لا أكثر ولا أقل. والمسألة ليست مسألة إخلاص شرعي لشخص حفيد من أحفاد النبي. ولا مسألة إخلاص إسلامي لحامي الكعبة. بل هي مسألة إنشاء وطن عربي تحت هذا اللواء، أمة كالأمم المتمدنة الأخرى في العالم، خارج كل طائفة وكل عشيرة، وذلك بالاعتماد على جميع أولئك الذين يشتركون في وراثته الحضارة العربية، لأنهم يتكلمون اللغة العربية. فهل يعد هذا الأساس المثالي كافياً لكي «يتعايش» المسلمون مع المسيحيين واليهود الذين قامت كل عصور تلك الحضارة باضطهاد أسلافهم؟ إن الاحتمالات كلها واردة. والحال أن حالات فرار حدثت مؤخراً من جانب مسيحيين سوريين بل

ولبنانيين انتهوا إلى الانضمام إلى الأركان العامة للشريف فيوصل في العقبة إنما تثبت أن القيمة والجازبية الفكرية لـ«أمة عربية» يمكن أن تؤثر على المسيحيين العرب».

وخارج هذا النص، عثر جيرار خوري على بعض المذكرات الوثائقية بالنسبة لأعوام الحرب هذه. والوثيقة المهمة الأولى عبارة عن تقرير إلى البعثة بتاريخ ١٥ أبريل/ نيسان ١٩١٩ حول إقامة في دمشق في يناير/ كانون الثاني - فبراير/ شباط ١٩١٩. وهو يتعلق بالأوساط الإسلامية في دمشق ويجري فيه وصف مختلف ظلل الرأي العام في مستهل فترة «المملكة العربية». وأنا أستشهد منه بفقرة دالة بشكل خاص على أفكار ماسينيون في تلك الفترة :

الوسط العربي الشاب والصحافة

«إن صحافة دمشق، المحررة غالباً بموهبة، ودائماً بحدة، هي عمل فريق من الشبان الذين من الواضح أنهم قليلو التعاطف مع فرنسا التي يرتابون فيها كغازية لكنهم متحمسون دائماً ومخلصون أحياناً في الوطنية التي يعلنونها. وبعد سقوط بغداد والقدس وبيروت تحت نفوذ أوروبا المباشر، أصبحت دمشق مهددة، وهي الساحة الأخيرة للاستقلال العربي المطلق. ثم إن الحب الذي يقول هؤلاء

الشبان العرب إنهم يغذونه تجاه الحضارة الغربية إنما تخفف منه حساسية عصبية جد قوية، ومحسوسة أيضاً، في العمق، حيال تعديات الصهيونيين في فلسطين وتعديات الإنجليز في شرق الأردن وفي بلاد الرافدين، كما حيال نزول الفرنسيين على الساحل السوري. ولكن، بمساعدة الأموال الإنجليزية، ليس هناك سوى هذا النوع الأخير من الشكايات الذي تعبر عنه صحافة دمشق شأن الأوروبيين ونصل المقالات الرئيسية موجه باستمرار ضد الفرنسيين. ومن جهة أخرى، فإن بعض الشبان، إذ يتذكرون المؤتمر العربي الذي عقده ممثلو الجيل السابق في باريس في عام ١٩١٣، يعبرون عن ذلك صراحة مع الفرنسيين. وبالإمكان الرد عليهم بإفهامهم أنهم لا يمسون بميزان عادل: بين إنجلترا، التي استثمرت الكثير من الرجال والمال لأجل قضيتهم لكنها تفكك عن دراية بعض البلدان العربية فتناصر الصهيونية في القدس ومعاداة الصهيونية في حيفا، والاستقلال العربي في حلب ودمشق والاحتلال المباشر، بل والوحشي، في السلط وفي بغداد؛ وبين فرنسا الراجبة في أن تتشكل الأمة العربية إلى حد ما، مع احترام تنوع عناصرها التكوينية نفسه من غير انتهاك لتنوع أعضاء هذا الجسد الكبير الذي ما يزال دون حياة والتي تعرف أنها هي وحدها القادرة على إقناع الأقليات المسيحية بل والدروز بالدخول بإخلاص

ودون تردد في الوحدة الاجتماعية العربية لأنها ضامنة للبعض
حيال الآخرين. في حين أن حكومة الهند [الإنجليزية] تتفنن في
إثارة الوهابيين ضد الحجاز وتمنع المتطوعين البغداديين في الجيش
العربي، المسرحين في دمشق، من العودة إلى بلادهم حيث يمكنهم
القيام بالدعاية العربية، لكن الصحافة المحلية لا تستطيع العيش دون
أن يصل إليها الدعم المالي والتغلغل الاقتصادي الأنجلو - مصري
لكي يملأ عليها توجهاتها».

ومن المؤكد أنه ضمن هذا التفكير يشترك ماسينيون مع بن
غابريت (الذي يطور أفكاراً مماثلة)، تحت قيادة فيليب بيرتلو، في
المفاوضات الثانية بين فرنسا وفيصل في خريف عام ١٩١٩
والتي تفضي إلى الاتفاق المرحلي في ٦ يناير/ كانون الثاني
١٩٢٠. ولسوء الحظ فإننا لا نحوز محضر هذه المحادثات. وكما
أوضح ذلك جيرار خوري، فإن روبر دو كيه هو الذي تولى
تخريب هذه السياسة، مدعوماً، والحق يقال، بمماطلات فيصل.

● العشرينيات

في يونيو/ حزيران ١٩١٩، يتوصل ألفرد لوشتاتليه الذي تندهور حالته الصحية إلى أن يمارس ماسينيون النيابة عنه في دروسه. وسوف يستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٢٤. وبشكل مواز، يجري تكليف ماسينيون ببعثة وزارة الشئون الخارجية الخاصة بالشئون السورية (باريس، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٩ – يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠؛ سوريا، نوفمبر/ تشرين الثاني – ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠) وبإقامته في المغرب حول تنظيم الطوائف الحرفية المسلمة (بداية ١٩٢٣ وبداية ١٩٢٤).

وانتخابه للكوليج دو فرانس يتم بدعم من السلطات كما توضح ذلك رسالتان تشيران إلى موافقة الحكومة العامة للجزائر والحماية المغربية اللتين يشاركان كل منهما بالنصف في تمويل الكرسي (مارس/ آذار ١٩٢٦).

أما البعثة إلى المشرق من ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٠ إلى ٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٢١ فهي تتصل بالسياسة التي يجب اتباعها في هذه المناطق بعد سقوط فيصل وتزايد قوة الحركة الكمالية، حيث يعلق الساخطون السوريون الآن آمالهم على الكماليين.

وفيما يتعلق بلبنان الأكبر، يفصح ماسينيون عن تشخيص متشائم:

«لبنان الأكبر. إن تحقيق هذا الحلم، العزيز على الموارد، إنما يهدد بخرابهم وقد أزاحت الحرب والأوبئة والهجرة الجانب الأكبر منهم. وسرعان ما سوف يبين التعداد الجاري الآن ما إذا كان من الضروري إلغاء ضم طرابلس (وربما جزء من [وادي] البقاع) لتجنب سقوط مسيحيي لبنان تحت نير غالبية مسلمة خالصة (أو نير الائتلاف مع الأرثوذكس)».

وهو يدافع عن سياسة ثقافية متعقّلة تحترم عروبة سوريا، وعن انسحاب فرنسي من قيليقيا مع حماية الأرمن وخروجهم في نهاية المطاف وعن حكم ذاتي لأكراد الأناضول (وليس دولة). ويحرر عدداً من المذكرات عن بعض الشخصيات السورية. وينتقد التنظيم الإداري للانتداب.

وحتى عام ١٩٢٧، يعتبر عمل ماسينيون السياسي أكثر انفتاحاً ويتواصل عبر معالجته للأحداث الجارية في مجموعة متنوعة من المقالات الاستعراضية وفي أعداد مجلة أنوار دي موند ميزيلما. وفي عمله مدخل إلى دراسة المطالب الإسلامية، في عام ١٩٢٠، يشجب الجامعة الإسلامية: «إن هذه الخرافة الغربية هي فانتازيا

روائية، جرى تعميمها في الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر من جانب كتابات كتاب مختلفين». وهو ينتقد بالمثل فكرة البلاشفية الإسلامية ورهاب الأجانب الإسلامي ويؤيد المطالب الإسلامية القائمة على المساواة المدنية: «فليعامل المسلم، دون أن يتخلى عن أحواله الشخصية والعائلية (تعدد الزوجات، المواريث، العقود)، كمواطن على قدم المساواة مع غير المسلمين من جانب جميع الدول: حتى يتوصل هو الآخر تدريجياً إلى تلك المساواة المدنية التي يتوصل الإسرائيليون أخيراً إلى نيلها في مجمل الكرة الأرضية». وهو يرحب بإعادة تنظيم الإسلام التي «تتم وتتسع بفضل الكتاب المسمين بالسلفية».

وهو يوضح طموحه الكبير:

«لقد حانت اللحظة، في فرنسا خاصة، لقطع شوط أبعد. إن سياسة إسلامية مثمرة حقاً يجب أن تصمم على أن ترتأي في التو الحال تبنياً قريباً في العالم الحديث لأشكال نوعية للمجتمع الإسلامي، فهو لا يريد أن يموت، وأن تدرس إلى أية درجة يمكن للنظام الاجتماعي الغربي الارتباط بالمسلمين في الدفاع الاجتماعي عن ثقافتهم التقليدية (بدلاً من دفعهم إلى الارتقاء في أحضان البلاشفة) وعن أساس حياتهم المشتركة وعن تراثهم كمؤمنين. إن

فرنسا، التي كانت الأولى في منح حق المواطنة لإسرائيل، يتوجب عليها اتخاذ المبادرة نفسها بالنسبة للإسلام، إذ تحين اللحظة لذلك».

والنص الثاني الذي يعالج فيه سياسة فرنسا هو العمل الشهير الذي يحمل عنوان مصير الشرق الأدنى ودور فرنسا في سوريا، في عام ١٩٢٢، حيث يحدد بشكل أكثر وضوحاً مهمة فرنسا:

«إذا شاعت فرنسا ذلك، فإن تحرير القومية العربية التدريجي الذي يمكنها توجيهه ومساعدته، من دمشق في المركز، سوف يجعل منها، بأكثر من ذي قبل، معلمة الشرق التي لا ينازعها أحد والمهمة التي سوف تثق فيها كل القوميات المجاورة، من مصر إلى فارس. والآن إذ يبتعد خطر نشوب نزاع فرنسي - عربي في سوريا من يوم إلى آخر، فإن مثل هذه الإمكانيات المستقبلية ترسم وتتحدد».

«ويكفي لذلك أن تكون فرنسا عادلة، أن تقبل أن تظل الحكم الذي لا جدال حوله والذي يسوي العلاقات بصبر، وأن تعرف كيف تصبح الناصح، المزود بسلطات كاملة، الذي يعزز شيئاً فشيئاً الوحدة القومية السورية، بما يتماشى مع آماني السكان نفسها. وفي هذه الروح، فإن المصاعب الحالية، جد المزعجة، سوف تُحلُّ

الواحدة بعد الأخرى، يفضل فرنسا. أولاً مسألة بيروت التي سوف تصبح محك استقامتنا: إن متجر سوريا الفكري إن لم يكن الاقتصادي، مركز الإحياء العربي، يجب أن يبقى على ما هو عليه؛ فلم يعد بالإمكان ربطه بكومينات لبنان الجبلية ارتباط جنيف بسافوا أو ليون بدوفينيه في الأزمنة الخالية. ثم مسألة لبنان الذي يجب تركه سيداً لمصائره، حراً في الاتحاد، في الوقت المناسب، مع الأمة السورية، بعد إجراء بعض التصحيحات المتكافئة في الحدود. وأخيراً مسألة الدروز والنصيريين الذين يجب تحقيق الاعتدال لخصوصيتهم القوضوية ولكن دون تحويل اتجاهها لتصبح سلاحاً ضد المركزة الحديثة التي ينشدها قوميو دمشق وحماة وحمص.

«وكل ذلك إنما يعني أن نظل موجودين في سوريا، فاعلمين وحازمين (...).

«فليكن بوسع مسيحيي فرنسا، دون أن يقللوا من حماسهم الرسولي ومن دعايتهم اللغوية في الشرق، أن يحترسوا من الآن فصاعداً من خلطهما بالرسالة السامية الخاصة بالتعاطفات والصدقة الإسلامية التي تشكل رسالة بلدهم الجديدة والملحة. وليكن بوسع الاشتراكيين الفرنسيين التخلي عن الامتناعية السلبية التي يمارسونها في السياسة الخارجية، عندما يقولون إنهم يؤمنون

بتطور اجتماعي للشرق متخلص من كل نفوذ غربي: فهذا سيكون مصدر تعاسته وتعاستنا.

«إن فرنسا يجب أن تظل موجودة على جميع الجبهات التي وضعها عليها تاريخها؛ إنها لا يمكنها الانطواء على نفسها، دون عقاب، بين جبال البرانس والراين. وسوف تجد في سوريا تلك السياسة الإسلامية الواجبة عليها حتى تصبح أفريقيا الشمالية فرنسية حقاً؛ وهي مسألة حياة أو موت بالنسبة للجيل القادم».

● اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية

في عام ١٩٢٧، انضم لويس ماسينيون إلى اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية ممثلاً لوزارة المستعمرات. وبوسعنا تتبع نشاطاته بفضل محاضر اللجنة. وأحد أول الموضوعات التي يعمل عليها هي مسألة الطوائف الحرفية المسلمة. ومع أن هذه كانت مسألة عالجه بالفعل بالنسبة للمغرب، إلا أن منظور اللجنة سياسي بشكل مباشر أكثر:

«ألمح الرئيس إلى الدعاية الضارة التي يتعرض لها الآن العمال الأفارقة الشماليون من جانب عملاء روسيا وأشار إلى أن هناك تصوراً مفاده أن بالإمكان العثور في الطوائف الحرفية المسلمة على وسيلة لاعتراض سبيل هذه الدعاية. والحال أن هذه الطوائف الحرفية قد اختفت تماماً في الجزائر على أثر تطبيق تشريع العمل ساري المفعول في فرنسا على رعايانا الجزائريين. وهي لا توجد في تونس إلا بأعداد قليلة لكنها ما تزال قوية في المغرب.

«على أن المؤسسات الطائفية الحرفية لهذا البلد الأخير قد درست بالفعل من جانب السيد ماسينيون من زاوية، والحق يقال،

علمية بأكثر مما هي عملية. ومن ناحية أخرى، فقد لخص السيد ماسينيون في المذكرة التي وزعت على أعضاء اللجنة المسائل التي سيكون من شأن دراستها السماح لهم برؤية الوسائل التي يمكن التوصية بها للحيلولة دون موت بل، إن أمكن، لتثقيط هذه الهيئات القائمة ليس على تناحر أرباب العمل والعمال وإنما على التعاون بينهم، على العكس من ذلك. وسوف يكون بوسع أعضاء اللجنة أن يدرسوا على مهل هذه المسائل إلى أن يجئ اليوم الذي يسمح فيه حضور السيد ماسينيون بمناقشتها على نحو مثمر».

ومذكرة ماسينيون تحمل تاريخ ٩ يونيو/ حزيران ١٩٢٧ وتعلق بالمسألة النقابية في تونس:

«بلغت السيد ماسينيون الانتباه إلى مذكرة يشير فيها إلى الفئتين الكبيرين للعمال التونسيين وإلى الأضرار التي يمكن أن يمثّلها، من الزاوية الإسلامية و، عرضاً، من الزاوية الدولية، تطبيق مشاريع المندوبية السامية العامة في تونس والخاصة بتطبيق قانون عام ١٨٨٤ على العمال الأوروبيين وبخلق مجالس مناظرة للعمال التونسيين (أنظر الملحق)».

وتدور في اللجنة مناقشة حول ضرورة تشريع عمالي في تونس وفي المستعمرات وحول خطر استخدام الأهالي لهذا التشريع

في غايات معادية للفرنسيين. ويجري تشكيل لجنة مؤلفة من أوجوستان برنار ولويس ماسينيون وفكتور بيكيه وممثل لوزارة الداخلية وتكليفها بإجراء استقصاء أكثر عمقا.

والحال أن المذكرة غير الموقعة والواردة في الملحق إنما ترصد قطاعين للعمل في تونس: الطوائف الحرفية ذات الاتجاهات المحافظة القومية المعتدلة، والموالية بالأحرى تجاه الحماية، والعمال الذين هم خارج أطر الطوائف الحرفية ويعملون في المشاريع الأوروبية الكبرى حيث يوجد مسلمون وغير مسلمين؛ ويجب مراعاة الأوائل الذين لا يحوزون غير حياة بطيئة الإيقاع وإن كانوا يشكلون نخبة البورجوازية المسلمة:

«من الناحية الإسلامية، تنشأ من ثم المصاعب التالية:

«١. إذا كان الأمر يتعلق بوضعية عامة للعمال المسلمين التونسيين، فلا بد من مراعاة صدى هذه الوضعية المباشر على السياسة الاجتماعية للحكومة العامة للجزائر وللندويية السامية العامة في المغرب.

«٢. إذا كانت هذه الوضعية تفصل مصالح العمال الأوروبيين في تونس (النقائيين بحكم قانون ١٨٨٤) عن مصالح العمال المسلمين الحرفيين الجدد العاملين معهم، فمن المحتمل أن يكون

ذلك مصدراً للمصاعب، كما أنه يهدد بإثارة سخط النخبة
البورجوازية للطوائف الحرفية الغارقة منذ ذلك الحين في الجمهرة
البروليتارية الأهلية.

«٣. يتوجب أيضاً مراعاة الانطباع الذي يحدثه لدى العمال
المسلمين ربط اليد العاملة الإيطالية بقانون ١٨٨٤، والذي يصعب
من جهة أخرى توفيقه مع ميثاق العمل الفاشي الجديد الذي سوف
تسجله عصابة الأمم مع تحفظات، كما نأمل، فيما يتعلق بالهجرة
الإيطالية. والحال أن خطر قيام كتل عمالي إيطالي - مسلم من
الساخطين هو خطر قليل الرجحان بالنسبة لتونس إلا أنه لم يكن
هناك مفر من توضيح المسألة في ختام هذه المذكرة التمهيدية».

وفي عام ١٩٢٨، يقدم ماسينيون تقريراً عن رحلته في
الشرق:

«يكثف السيد ماسينيون بتقديم إيضاحات شفوية حول مختلف
المشكلات التي تسنى له دراستها خلال رحلته. وهو ينوي أن يحرر
فيما بعد عرضاً أكثر منهجية وأكثر كمالاً لملاحظاته عندما يتسنى
فحص وفرز الوثائق التي جمعها. والحال أن بعثته التي دامت
ثلاثة شهور، من ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٧ إلى ٢٠
يناير/ كانون الثاني ١٩٢٨، كان هدفها الرئيسي هو سوريا من

زاوية إجراء استقصاء سوسيوولوجي حول تنظيم روابط الحرفيين وتجمعات العمال. وكانت المحطات التالية هي مصر وفلسطين وشرق الأردن وبلاد الرافدين والشمال - الشرقي السوري ثم، بعد إقامة ثانية في سوريا، القسطنطينية.

«وفي مصر، تعلقت ملاحظاته بجامعة الأزهر والحدائثة وبالنزعة القومية وبالرابطة الشرقية وتعلقت في القدس بلائحة المجلس الإسلامي الأعلى وتعلقت في بغداد بالمشكلة الشيعية وبالتعليم العام أمّا في القسطنطينية فقد تعلقت بأرشفات التكايا وبتريك اسطنبول. ومن الزاوية الإسلامية العامة في سوريا، رصد الآثار الحميدة للرقابة العامة على الأوقاف. وهو يعرض مسألة الطائفة العلوية والنتائج المترتبة على إنشاء مناصب للقضاة الجعفرية في داخلها. وهو يشير إلى مشروع «طائفة» مسلمة في سوريا وفي لبنان وفقاً لنموذج «الطوائف المسيحية» سعياً إلى إصلاح القانون وتطبيع مسائل الأحوال الشخصية (والتي ما تزال إلى الآن خاضعة للقضاة [المسلمين] حتى في حالة خصومة قضائية بين مسيحيين). وتعد بعض «الفتاوى» مجنّدة لهذا الإصلاح الذي يبدو الليبراليون معادين له.

«وأخيراً، يعلن السيد ماسينيون أنه دشّن استقصاءً حول روابط وتجمعات العمال في سوريا وفي لبنان عن طريق استبيان مسائل

للاستبيان الذي اعتمد عليه في المغرب في علمي ١٩٢٣ و ١٩٢٤. وقد وجد مادة وثائقية ثرية في التشريع التركي القديم وفي الأرشيفات البلدية. والحال أن الاستجواب المباشر لرؤساء الطوائف الحرفية من جانب اللجان في مدن الداخل لا بد له من أن يوفر نتائج مهمة بعد عدة شهور من الآن. وهو يشير إلى أمثلة للنقابات وللروابط التي درسها بشكل خاص».

وفي ٦ مارس/ آذار ١٩٢٨، تثار من جديد مسألة النقابات في تونس: والتقرير جاهز وسوف يوزع في الاجتماع التالي. ثم تجوي مناقشة مسألة أثارت اهتمام اللجنة: «إن أحد أبناء جزر القمر من أصل مسلم، تحول إلى اعتناق المسيحية ويقوم في زنجبار، يطالب بتملك تركة والده وهو أمر تحرمه عليه السلطات القضائية المحلية إعمالاً لقاعدة الشريعة الإسلامية التي تنص على عدم جواز تركة بين مسلم وكافر». والحال أن موران، عميد كلية الحقوق بالجزائر العاصمة، والذي دعي بشكل خاص للاستماع إليه بصفة استشارية، يرى أن هناك مجالاً لتلبية مطلب القمري المتحول إلى اعتناق المسيحية. فنحن بازاء قاعدة حق عام موجهة ضد فرنسا ومن يتطورون في اتجاهها، ومن ثم فهي قاعدة غير مقبولة؛ وباسم مبدأ التسامح، لا يمكن قبول قواعد الحق التي تتعدى على حقوق غير المسلمين؛ وهذا أمر تكرسه أحكام القضاء في الجزائر؛ وتدور

مناقشة حول معرفة ما إذا كان تغيير الديانة يستتبع تغيير الوضعية القانونية.

«يرى السيد أوجوستان برنار أن التعارض القائم بين القانون الفرنسي، المستقل عن أية ديانة، والقانون الإسلامي، المرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً، ليس تعارضاً غير قابل للإصلاح. إذ تجب مراعاة علمنة القانون الإسلامي التي تتجلى على أصعدة مختلفة.

«ويتدخل السيد ماسينيون في عين اتجاه تدخل السيد أوجوستان برنار. فهناك في تركيا وفي مصر وفي سوريا تطور للقانون الإسلامي يؤدي إلى أحوال شخصية مستقلة عن الشأن الديني. وفيما يتعلق بالوضعية القانونية التي يجب إعطاؤها للمسلمين الذين يتحولون إلى اعتناق المسيحية، يشير إلى أنه سوف يكون من الأهمية بمكان معرفة ماهية الحل الذي أعتد في ماليزيا حيث تحول ما بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ مسلم إلى اعتناق المسيحية. وهذه الحركات المسيحية هي بوجه عام حركات قومية. ويمكن افتراض أنهم بعد هجر وضعيتهم الإسلامية لم يطالبوا بالاستفادة من القانون الهولندي».

وتستعاد هذه المسألة في ٨ مايو/ أيار ١٩٢٨:

يقدم ماسينيون قراءة لرسالة من سنوك — هورجورونجي من لايدن حول الوضعية القانونية للمسلمين المتحولين إلى اعتناق

المسيحية في الهند الهولندية. فما له أهمية هناك هو قانون العرف المتحد أو غير المتحد بالقانون الإسلامي؛ وقد تطور تدريجياً قضاء يتعلق بحقوق المتحولين؛ فالمتحول يرث بموجب مبادئ العرف؛ أمّا حيثما يشكل القانون الإسلامي العرف فإنه لا يرث. وتتلقى اللجنة معلومات عن ممارسات بلدان مختلفة.

ثم تجري تلاوة تقرير حول مسألة النقابات في تونس. ويتم التوصل إلى استنتاج أنه يجب اعتبار أن من غير المرغوب فيه مد قانون ١٨٨٤ حول النقابات المهنية ليشمل تونس وذلك بسبب الضعف العددي للعنصر الفرنسي في العالم العمالي في تونس وبسبب المخاطر التي سوف ينطوي عليها على حد سواء تطبيق أو عدم تطبيق هذا القانون على العناصر الإيطالية والتونسية. وفي هذا الاتجاه تسير أمنيّات اللجنة.

ويجري التذكير بموقف جو هو الذي أيد في البداية تكوين اتحاد تونسي عام للشغل ثم انتقل فيما بعد إلى معارضة ذلك بسبب رفض النقابيين التونسيين اتباع توجهات الاتحاد الفرنسي العام للشغل. ويجري الاتفاق على أن العمل الاجتماعي يجب أن يكون قبل كل شيء عمل الحكومة:

«يقترح السيد ماسينيون عملاً من جانب الحكومة عبر تفتيش مناسب على العمل، سعياً إلى إعطاء توجه جديد للحرف الأهلية

الصغيرة. فهذه الحرف الصغيرة غالباً ما تتطلب فترة تدريب طويلة ولم تعد توفر قوت من يمارسونها وينجم عن ذلك سخط يمكن أن تكون له أصداء على النظام السياسي. والحرف الصغيرة المتضررة ليست فقط الحرف الغنية، فغالبية المهن التقليدية الصغيرة هي في هذا الوضع نفسه».

وفي مستهل عام ١٩٢٩، يعرض لويس ماسينيون نتائج استقصاء سوسولوجي حول تنظيم العمال الحضريين والزراعيين في سوريا. وفي ٢٥ يونيو/ حزيران ١٩٣٠، يتناول مسألة مراجعة الصحافة: إن معهد الدراسات الإسلامية بالسوربون يجب أن يركز التوثيق الذي يخدم في مراجعة صحافة العالم الإسلامي من جانب وزارة الشؤون الخارجية ووزارة المستعمرات.

● مسألة الجزائر

في ٣١ مايو/ أيار ١٩٢٩، في اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية، نجد تقريراً لمييو، الأستاذ بالجزائر العاصمة، حول بعض التعديلات التي يجب إدخالها على وضعية الأهالي المسلمين. ويتعلق الأمر بمستوعبين [مفرنسين] يرفضون التجنس [بالجنسية الفرنسية] بسبب اعتراض الوسط الذي ينتمون إليه وبسبب تحفظ الفرنسيين في الترحيب بذلك. ويقترح مييو تجنساً تلقائياً لهذا الفريق: «سوف يكفي القول إن بعض الدرجات وبعض المهن تستتبع التجنس بشكل أوتوماتيكي؛ ولصالح أولئك الذين قد يبدون ترددات دينية أو اهتمامات قائمة على العرف أو القانون الإسلامي، سوف يكون بالإمكان الاحتفاظ ببعض الحقوق في إيجاد بعض الاستثناءات، بصفة مؤقتة. وبشكل مرحلي، سيكون بالإمكان الاعتراف ببعض الممارسات التي لن تكون من جهة أخرى في تعارض مطلق مع قانوننا المدني، كالطلاق عبر القبول المتبادل وإبقاء التركات في الخط الذكوري والحبوس. ومثلما يمكن للأهالي الآن، عبر الاختيار، الاستفادة في بعض الحالات من القانون الفرنسي، فسوف يكون بوسع المجنسين الاستفادة، عبر الاختيار، من بعض ترتيبات القانون الإسلامي». وعدد الأشخاص

المعنيين سوف يكون محدوداً؛ وسوف يؤدي ذلك إلى تحييد الوسط الذي تولد فيه بعض التطلعات إلى التمثيل النيابي. «يعلن السيد ماسينيون أنه من أنصار الإصلاح الذي اقترحه السيد لويس ميسو فيما يتعلق بالتجنيس التلقائي للأهالي المتطورين. لكنه يريد لهذا الإجراء أن يكون أكثر اتساعاً. فهو يتعلق بنحو ٤٠.٠٠٠ شخص. وهو يوافق على إدخال الأهالي من الكادر الفني للسكك الحديدية ضمن المستفيدين من هذا الإجراء.

«وهو يلاحظ، من جهة أخرى، أنه إذا كان من الضروري الاحتفاظ، لصالح الأهالي المجنسين تلقائياً، بحق الاختيار تأييداً لبعض ترتيبات القانون الإسلامي، فسوف يكون من المناسب عدم إغفال أن هذا القانون يتطور: فقد جرى التخلي عن بعض الأفكار، كالحبوس العائلية. ويجب تجنب إيلاء أهمية مسرفة لأشكال قانونية أخذت العقلية العربية تتخلي عنها.

«ويشير السيد ماسينيون إلى وضع القبائل [البربر] وأهالي آخرين ذهبوا إلى فرنسا للعمل وسوف يكتسبون فيها أفكاراً جديدة. فهم يتقدمون بمطالب عديدة للتجنس. وهذه المطالب تجد مصدر إلهامها، في معظم الأوقات، في أمعاء الخلايا الشيوعية جد الحريصين على زيادة عدد الناخبين المنصاعين لهم. ولا يجب التخلي عنهم».

والحال أن اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشؤون الإسلامية تتخلى عن الاهتمام بهذه المسألة حيث جرى تكليف لجنة وزارية مشتركة جديدة بدراسة مسألة تمثيل أهالي الجزائر والمستعمرات وذلك بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر. وفي ١٤ مارس/ آذار ١٩٢٩، تجتمع هذه اللجنة وتطرح على نفسها مسألة المجازفة برؤية التنازلات المقدمة وقد امتدت لتشمل عموم أهالي المستعمرات؛ وقد جرى اختيار ماسينيون وأجوستان برنار لتقديم التقرير السياسي؛ وسوف يزور ماسينيون الجزائر لكي يضطلع باستقصاء في أوساط الأهالي.

وفي ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٣٠، يقدم ماسينيون تقريره على شكل إجابة عن سبعة أسئلة طرحت في الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه السيد أندريه تارديو في ٤ مارس/ آذار ١٩٢٩. ولا ننوي هنا تحليل مجمل التقرير الذي يتوصل إلى إنشاء كتلة انتخابية أهلية تشمل النخبة الجزائرية وتصوت في الانتخابات الفرنسية، بل ننوي تمييز بعض الأفكار الرئيسية الماسينيونية بشكل خاص:

من الواضح أن هناك نخبة جزائرية: «من المؤكد أن هذه النخبة ضعيفة عددياً (لكن الحال كذلك في كل مكان)؛ ولإثبات عدم أهليتها للمشاركة في ممارسة حقوقنا السياسية، قيل إنه لو أتيح لها الصعود إلى ذلك، فسوف تنتهي، كالوفد في مصر، إلى استغلال

الفلاح والعامل الأهلي بشكل أكثر قسوة عقماً و«خسارة» من المؤسسات الكبرى للاستعمار الأوروبي، لكن من غير الوارد السماح لها بمحاولة ذلك. فنحن هناك، ويجب الاعتراف بأن الجمهرة المسلمة، الفلاحية والعمالية في الجزائر، إنما تظل التربة الاجتماعية التي تنبت منها باستمرار (كما في كل مكان آخر) النخبة البورجوازية، حيث تشعر الواحدة أنها ما تزال متضامنة مع الأخرى (كما كانت الحال عندنا في سنوات ١٩١٤ - ١٩١٨)، حيث الأهالي الفقراء يحققون بدرجة أقل بكثير على أغنيائهم، حتى الأكثر شحاً بينهم، من حقدهم على الأكثر كرمياً بين المستوطنين المهاجرين: فهم ليسوا من دم واحد. فهل يليق بنا أن نعمل على مولد صراع الطبقات بين الأهالي الجزائريين، عبر حرمان النخبة المحلية من أي دور اجتماعي نافع، سعياً إلى الاحتفاظ بسيطرة مباشرة على العامل والفلاح؟ إن هذه الماكيافيلية سوف تتكشف وسيكون من شأن رأسمالية غير ذكية أن تعمل، مرة أخرى، لصالح الشيوعية وذلك بحرماننا من الطبقة المتوسطة».

وهذه النخبة متعطشة إلى الثقافة الفرنسية: «إن طبقة بورجوازية آخذة في النشوء، من بين صفوف الحرفيين الأغنياء، يبرز أبنائها بشكل مطرد في اللبسيهات، على رأس الفصول غالباً. وهناك رغبة عارمة في التعلم بالفرنسية والحال أن إدارة التعليم

العام هي التي تكبح ذلك، وذلك على الأرجح بسبب نقص الكوادر والاعتمادات المالية. وهذا صحيح بشكل خاص بالنسبة لتعليم الشابات المسلمات: إن التحيزات المعادية تتفكك، لكن إدارة التعليم العام لم تنشئ جميع مدارس البنات التي طلبت منها. وفي هذا الصدد، فإن تخلف الجزائر قياساً إلى جميع البلدان الإسلامية الأخرى، خاصة مصر، هو فضيحة حقيقية، نتحمل دائماً المسؤولية عنها. وحتى لا نأخذ غير القبائل [البربر]، حيث التقدم الثقافي جيد واضح بين الرجال، فإننا لم نتمكن بعد، وذلك بعد ستين عاماً من الاحتلال، من إنشاء مدارس تدير منزلي تعلم النساء اللاتي لا تعرف نسبة 85% منهن الحياكة بشكل مناسب: ومن المعروف أيضاً أنه، بالنسبة للوضع القانوني للمرأة القبائلية والتي تعد أسوأ بكثير من وضع المرأة المسلمة، فإن مشروع ريتشي مازال قيد البحث في البرلمان منذ عامين. والحال أن تحفظاً إدارياً، ليس دون مقاصد خفية، قد جعلنا نحاول تكليس الإسلام في الجزائر ومازلنا نحمي فيها خرافات القانون التقليدي (كالبو مرقود: الابن الذي يولد بعد موت أبيه بعامين) والتي لا يرفضها الحزب الإصلاحي وحده، بل يهجرها الحزب شبه الوهابي (السلفي) نفسه باعتبارها بالية عفا عليها الزمن. وبشكل متزايد باطراد، يحشد هذان الحزبان غالبية النخبة الثقافية المسلمة الجزائرية، المعبرة عن نفسها تعبيراً دينياً؛

ومن ثم فهي تبدأ في الشعور بنفسها؛ بل إن «جناحها اليساري» الإصلاحية، الأكثر أهمية، يتوجه بشكل واضح نحو الفرنسية، ليس فقط نحو الجزائر العاصمة، بل نحو باريس، حيث يحلم بغرس الإسلام هناك، بمساعدة أولئك المتفرنسين؛ وهذه القبلة الزمنية [الدينية] يجب تذكرها وتأملها».

وينتقد ماسينيون عدم تماسك العلاقات الإدارية بين باريس والجزائر العاصمة والذي يزيد من النزاعات على السلطة بين إدارات الحكومة العامة وإدارات الوزارات. لكنه معاد لارتقاء العلاقات مع المتروبول.

وهو يحلل أهمية الأحوال الشخصية بالنسبة للأهالي الجزائريين: «إنها جسيمة، ولا يجب التقليل من أهمية الحساسيات الناشئة عنها، لكن ذلك ليس عقبة دائمة؛ إنه رد فعل غريزي يتفكك في الجزائر، وهي بلد متأخر في هذا الصدد، تحت صدمة الاعتراضات النفعية ذاتها الموجودة في البلدان الإسلامية الأخرى الأكثر تقدماً حيث يشهد القانون العائلي الآن تحولاً سافراً. وفي الجزائر، كان استقصاء عام ١٨٩١ (الذي يجب تحديثه) قد أوضح بالفعل أن خمسة أسداس رؤساء الأسر يكتفون بزوجة واحدة، ثم إن الاحتكام إلى القانون الفرنسي، وهو خيار ارتأه القانون، إنما يجري اللجوء إليه بشكل متزايد باطراد. وبالنسبة

للقبائل [البربر]، يبدو مؤكداً أنه سيكون بالإمكان العمل على انتقالها من قانون البربر العرفي إلى القانون الفرنسي دون مرور بالقانون الإسلامي؛ إلا أنه لكي يحدث هذا، سوف يتعين، بشكل موازٍ لجهود حقوقييننا، السماح لإدارة الشؤون الأهلية بصياغة سياسة منهجية تجاه البربر (كما حدث في المغرب) والكف عن السماح بالتعريب، عبر تراث توحيد عبثي، لمناطق ما تزال بربرية اللغة حيث مازال هناك إصرار على القيام بترجمة عربية للأحكام الصادرة ومراسلة بالعربية مع البلديات المختلطة ومشايخ الدورات [القرى]، الخ.

«وبوجه عام، من الواضح أنه لا بد من ممارسة رقابة يقظة على جميع الأشكال الجديدة للاتصال الاجتماعي الذي يقرب الأهالي من الحضارة الأوروبية، وقد تبين ذلك خلال إرسال الممرضات الزائرات الأوروبيات الأوائل إلى الريف، دون تحضير، كما أن تعميم عناصر النوم المختلطة والمهاجع الجماعية المختلطة بين الداخليين (أو الجنود) الأوروبيين والأهالي ليس هو الآخر دون خطر».

وهو يدرس مسألة التجنيسات القانونية: «لا بد من شجاعة مدنية حقيقية لدى رؤساء الأسر المائة الذين يواجهون علناً، في كل عام، اعتراضات اخوتهم في الدين إذ يطالبون، بشكل فردي،

عبر التخلي عن أحوالهم الشخصية، بتجنيس غالباً ما يتم التسوية فيه ونحن لا نمتن لهم كثيراً على ذلك».

وتتبع المشكلة من أن أبناءهم، خاصة البنات، يتمسكون بالوضع الإسلامية في غالبيتهم، ومن هنا أهمية قانون حماية عبر التسجيل في سجلات.

ثم يتناول المسألة الأساسية الخاصة برسالة فرنسا:

«إن الجزائر العاصمة هي واحدة من كبريات مدن فرنسا؛ إنها «رأس جسر» الحضارة الفرنسية، وقاعدة تغلغلها في الوسط الإسلامي الأفريقي الشمالي برمته. وهذا الوسط يشهد تحولاً اجتماعياً سافراً ورسالتنا التاريخية نحوه لم تنته، وهو لم يعد يملك من رصيده الخاص غير مثل أعلى ثيوقراطي عفا عليه الزمن أو عادات قبلية غير متماسكة؛ ويبقى علينا أن نربيه تربية سياسية وأن نغرس فيه الشعور بهذه الفكرة الأساسية جد المهملة، في هذه الأزمنة التي تتميز بالروح النقابية المسرفة، وهي الفكرة الخاصة بدولة «حافطة»، صارمة، وبعدالة فوق الطوائف الحرفية، وبقانون مدني واحد بالنسبة للجميع. ومن ثم فإنه لا يجب شل عملية القيام بنشر في هذه الكتلة الأفريقية الشمالية لفرنسة فكرية بل وروحية تشع من الجزائر العاصمة كمركز إلى تلمسان وقسنطينة حيث

قرب المغرب من الأولى وقرب تونس من الثانية يعرضهما لهجوم وقتي من جانب نزعة عربية «مغربية»، مصاغة وفق النماذج المشرقية، بما يشكل صياغة مفتعلة لايدولوجية تجهل الامكانيات الحقيقية الغربية لجنس بربري [نسبة إلى البربر] بشكل جد عميق.

«وقد تسنى بالفعل، في دهشة وفي فرح، رصد أن المسلمين الجزائريين، النازحين منذ الحرب إلى الدار البيضاء وإلى تونس العاصمة، قد ساعدوا مساعدة عظيمة على نشر الثقافة الفرنسية هناك: وهذه الظاهرة ليس من شأنها إلا أن تزداد كثافة.

«ومن ثم فلم يعد يتعين على احترامنا للإسلام الجزائري أن يميل إلى تكليسه عبر القانون ولا إعادة تعريبه عبر المدرسة، لأن نخبة الجزائر الأهلية ما تزال تتوجه إلى فرنسا وما تزال تؤمن بباريس، فلنرحب في القوت المناسب بهذه الفرصة الرائعة لكي ننصف هذه النخبة ولكي نساعدوا على المشاركة في مجمل حياتنا المثروبولية، معززين بذلك نفسه أبناء جنسنا على تلك الأرض الإفريقية التي نجح عمل آبائهم الصبور في جعلها أرضنا».

وفي أول مايو/ آيار ١٩٣٠، تجتمع اللجنة في جلسة موسعة: ويذكرُ تارديو بأن اللجنة موجودة لتقديم الرأي وأن الحكومة هي المختصة باتخاذ القرارات. والواقع أن ماسينيون، في داخل اللجنة نفسها، سوف يكون وحيداً في رأيه وسوف يتم رفض تقريره.

الدورات الخاصة للجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية

سعيًا إلى تقديم بعض الترضيات إلى أهالي الجزائر، يعاد، في
ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣١، تنظيم اللجنة الوزارية المشتركة
الخاصة بالشئون الإسلامية:

المادة ٨.

«اللجنة الوزارية المشتركة مكلفة بأن تدرس، بمشاركة
الأهالي المسلمين الجزائريين، كافة المسائل التي تخص أحوالهم
الشخصية وتمس مصالحهم الأدبية والدينية».

وفي يونيو/ حزيران ١٩٣٢، تتعدّد الدورة الخاصة الأولى
للجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية. وفيها تجري
مناقشة تعديل سن البلوغ عند المسلمين.

٦٣ «السيد ماسينيون: يجب بذل جهد في اتجاه تحديد نظام
مشترك لعدد من المسائل الجوهرية، وهو تحديد من شأنه أن يسهم
في إيجاد أخلاق مدنية مشتركة أولية ومن شأنه تفادي الاحتمالات
الحالية للاحتيال التقليدي والجماعي».

وتتعدّد الدورة الخاصة التالية في ٣ مارس/ آذار ١٩٣٣،
وفيها تجري مناقشة مسألة قانون العائلة.

وفي ١٩ مارس/ آذار ١٩٣٤، في الدورة العادية للجنة
الوزارية المشتركة الخاصة بالشؤون الإسلامية، وفي غياب
ماسينيون، يتحدث الليوتنانت - كولونيل مونسبير عن ظروف
مرابطة قوات أهلية مسلمة في فرنسا؛ وخطر الاتصال بالعناصر
المثيرة للقلق، خاصة إذا كانت تضم عناصر من الأهالي
[المسلمين]؛ وضرورة ممارسة رقابة خارج الثكنات، خاصة بفضل
هيئات الأمن العام.

وفي الدورة الخاصة التي تبدأ في الأول من مايو/ أيار
١٩٣٤، يجري توسيع المسألة لتشمل حق الخطابة في المساجد؛
ونظام الصحافة في الجزائر؛ وتنظيم التعليم الحر للغة العربية.
ويجري إنشاء لجان فرعية لدراسة هذه المسائل.

«السيد ماسينيون: أتمنى كثيراً لو أن هناك نوعاً من الاتصال
بين الأفكار المطروحة هنا والأفكار التي يتم التمسك بها في
الجزائر العاصمة حول هذه المسائل المختلفة؛ فدون ذلك سوف
تكون هناك ازدواجية نافلة في العمل وتداخل، في حين أنه يجب أن
يكون هناك تنسيق وارتباط.

«السيد دو سان كينتان يؤيد الأمنية التي أعرب عنها السيد
ماسينيون».

وفي ٩ مايو/ أيار ١٩٣٤، كانت المناقشات حيوية: فتحن
بازاء تقرير المندوب الجزائري المسلم الذي ينتهي إلى جواز
ممارسة رقابة على الخطب في المساجد. فهذا يتماشى مع مبادئ
الشرع الإسلامي في الموضوع كما يتماشى مع التطبيق الذي حدث
لهذه الممارسة للرقابة عبر التاريخ من جانب ملوك بلدان الإسلام.
وهناك دعوة إلى مراقبة الصحف، بما في ذلك الصحف الفرنسية
الموزعة فيما وراء البحار وتثار مسألة مراقبة المدارس الخاصة
العربية. ولا يتدخل ماسينيون بالكلام حول الموضوعين الأولين،
لكنه يتكلم عن الموضوع الثالث مشدداً على الدفاع عن التعليم
بالعربية الفصحى:

«مذكرة السيد ماسينيون حول موضوع تنظيم التعليم الحر للغة
العربية:

«من الملح عدم السماح بأن يحدث في الجزائر اعتماد للفكرة
القائلة بوجود تعارض بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية
الكلاسيكية وبأن على الحكومة الفرنسية اتباع خطة تدمير لهذه اللغة
العربية لأنها حاملة للدين الإسلامي. وتعويضاً عن المراقبة الأكثر
صرامة للمدارس الحرة الإسلامية للغة العربية والتي تفرضها
بعض التغلغات السياسية، أطالب بدعم رسمي لمبدأ التشجيع
المادي للمدارس العربية التي تعلم العربية الفصحى وذلك عن

طريق الوفود التمويلية حيث يتوجب على المندوبين الفرنسيين أن يكونوا أول من يتبنى الدعوة إلى الإغلاء من جديد من شأن العربية الفصحى في امتحانات البكالوريا».

والحال أن رأي اللجنة يسير في آن واحد في اتجاه مراقبة التعليم بالعربية وفي اتجاه تعزيزه.

وفي ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٤، في دورة عادية، يعاود مونسابير التشديد على الظروف التي تتواصل فيها الدعاية الثورية والمعادية لفرنسا في صفوف القوات الأهلية المسلمة المرابطة في فرنسا (نجمة شمال أفريقيا بين جمعيات أخرى):

«يعرض السيد ماسينيون النتائج التي تم التوصل إليها من خلال عمليتين أفريقيين شماليين خاصتين يولييهما اهتمامه، تم الاضطلاع بهما في جانفيليه وفي ليون. وهو يرى أن المراقبة البوليسية لا يسعها أن تؤدي إلى أية نتيجة حاسمة في مكافحة الدعاية الضارة الموجهة إلى العسكريين الأفارقة الشماليين، ما لم تكن هذه المراقبة مصحوبة، حيال أولئك العسكريين، باعتناء صادق وبجهد يهدف إلى الفهم وباتصال متواصل. ويرى السيد ماسينيون أن بالإمكان العثور على أشخاص مستعدين للانكباب على أعمال في هذه الروح».

وبشكل مواز، يشارك ماسينيون في ١٢ أبريل/ نيسان ١٩٣٥ في لقاء، برئاسة الماريشال فرانسيه ديسبيرى، للجنة الصداقة الأهلية التي سوف تصبح لجنة الصداقة الأفريقية والتي تمتد مهمتها الأوسع إلى التعبئة وإلى زمن الحرب.

«في المناقشة التي تلت ذلك شارك: الجنرال فيرو، مشيراً إلى الفوائد التي سوف ترتبط بقيام السلطة العسكرية بدفع جميع المخصصات والمعاشات، الخ، ذات الأصل العسكري؛ والسيد ماسينيون مشيراً إلى الأضرار والأخطار التي تطوي عليها حملة إعلامية، إسرائيلية المنشأ، موجهة ضد الأهالي والعسكريين المسلمين».

ويتم اعتماد اللائحة.

وفي ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥، تقوم اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية والمعقودة في دورة خاصة بدراسة نتائج الآراء التي طرحتها اللجنة في الدورات السابقة:

«إن الآراء التي تم التعبير عنها في الدورات السابقة إنما تتعلق، في المقام الأول، بإتاحة الاستفادة من المعاش لأرامل الموظفين المسلمين المتزوجات وفق العرف العربي قبل صدور مراسيم ١٣ أبريل/ نيسان ١٨٩٩ و ١٦ يوليو/ تموز ١٩٠٧ و ٢ فبراير/ شباط ١٩٢٦.

«وفي المقابل، لم تأخذ الإدارة بآراء اللجنة حول الوصاية. وفيما يتعلق بحق إلقاء الخطب في المساجد ومسألة نظام الصحافة في الجزائر، فقد جرت تلبية جزئية للرأي الذي أعربت عنه اللجنة وذلك بمرسوم ٣٠ مارس/ آذار ١٩٣٥. والحال أن الدكتور بن جلول، وهو عضو جديد في اللجنة، يحتج على واقع أن الجزائر لا تخضع للنظام المطبق في المتروبول فيما يتعلق بالصحافة. ويشدد السيد ماسينيون على ضرورة توصيل أفضل للوثائق الإدارية بين باريس والجزائر العاصمة».

والمسألة الجوهرية في جدول الأعمال هي تعليم العربية في الجزائر: ويجري الاستماع أولاً إلى التقرير الأولي لأوجوستان برنار ثم يجري تحديد نظام المناقشات بالنسبة للجلسات التالية. وفي ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول، يتدخل ماسينيون:

«إن الطفل العائد إلى ذويه إنما يفتقد التعليم الذي تلقاه. والطالب الذي يريد تكوين أسرة لا يجد رفيقة من عين مستواه. إن المسألة جد حساسة.

«وبما أنني كُفِّتُ بمهام في كثير من البلدان الإسلامية، فقد كان لا بد لي من رصد شبه انعدام مدارس البنات، والخاص في الجزائر. وأنا أعرف جيداً أن المسلمين المالكيين، في الجزائر، كانوا، في الماضي، يعالجون المسألة بانزعاج لكنني، في القاهرة،

تسنى لي أن أرصد أن كثيرات من البنات يواصلن الآن دروسهن في الليسيه، سافرات، حتى سن السادسة عشرة؛ ومن ثم بعد البلوغ. وأنا لا أعرف إلى أية درجة يمكن أن نرتأي بالنسبة للجزائر مثل هذا التغيير للعادات. وأتمنى طرح المسألة للنقاش.

«السيد جو: هذه مسألة جسيمة، ترى ما هو رأي الأعضاء المسلمين في اللجنة في هذا الموضوع ؟

«السيد بن خلاف: إنني واثق من أنني أعبر عن الشعور الإجماعي لزملائي من الأهالي إذ أؤكد لكم، دون تردد، أننا تخامرنا رغبة حارة في أن نتاح لنا فرصة إرسال بناتنا إلى المدرسة الفرنسية. ومن ثم فلا يسعنا إلا أن نتمنى بذل جهد في هذا الاتجاه، ولكن أولاً لصالح السكان المتطورين في المدن وبشرط أن تعليم الصبيان، الذي يجب أن تكون له الأولوية، لن يتعرض من جراء ذلك لأي ضرر وأن يواصل تطوره بشكل مطرد.

«السيد زروق محي الدين: سوف أقول لكم في التو والحال إن المسلمين قد تطوروا. إن مسلمي المدن سوف ينظرون بعين الارتياح الكبير إلى تردد بناتهم على المدارس. ومن جهتي، فإنني أب لخمس بنات، تلقت ثلاث منهن دروس شهادة الدراسات؛ وأنا أعرف في الجزائر العاصمة أسرة فيها ثلاث بنات حائزات للبيكالوريا. على أن لدينا شاغلاً: هو مسألة العمر. فإلى أي عمر

يمكن إرسال البنات إلى المدرسة ؟ أود لو أن الإدارة رأت إنشاء مدارس للبنات في المدن الكبرى، خاصة المدارس المهنية.

«وفي قسنطينة، هناك مدرسة خاصة بالبنات فقط؛ وقد أعطت نتائج طيبة.

«السيد فيلار: هذه الحالة الذهنية جديدة. وأنا لا أوجه لوماً. قبل بضع سنوات، كانت الحالة الذهنية على الضد من ذلك. والحال أن الإدارة الفرنسية، حرصاً منها على مشاعر المسلمين، قد ترددت أمام تعزيز إنشاء هذه المدارس.

«السيد ماسينيون: بالضبط، واليوم يعترضون على أننا لا نبذل جهوداً لتعليم البنات، وهذا الكلام يصدر خاصة عن سوريا ومصر».

ويشار إلى التعليم الأولي وتعليم الإناث التدبير المنزلي:

«السيد ماسينيون: يشير التقرير الأولي إلى ١٢ ٠٠٠ بنتاً تتلقين التعليم. وهذا قليل. وقد أشرت دائماً إلى تعليم العربية الفصحى من حيث هي لغة حضارة. والعربية لها دور مستقل. والمرأة محافظة. وبوسع المرأة أن تحتفظ، بفضل تعليم بالعربية، بعنصر معين من الثقافة. ويمكن عمل ما تم عمله بالنسبة للفارسية في فارس: تقديم التعليم بالعربية في الجزائر لعدد معين من البنات. وقد تم عمل ذلك في تونس.

«السيد بن جلول نيابة عن السيد غلام الله: إنني على اتفاق مع السيد الأستاذ ماسينيون؛ فتعليم الفتاة يجب أن يكون بالعربية. وما فائدة دبلوم في اللغة الفرنسية لفتاة؟

«باختصار، يجب إعطاء البنات الجزائريات تعليماً خاصاً بالتدبير المنزلي وتعليماً باللغة العربية.

«السيد جو: الأستاذان بمدرسة اللغات الشرقية، السيدان بلاشر وبن حمودة، سوف يحضران غداً صباحاً؛ وسوف يسرنا كثيراً سماعهما».

ويتوقف ماسينيون عن التدخل في هذه المناقشة التي تستمر، في يوم ٢٩، بحضور ممثلين لمستعربي اللغات الشرقية:

«السيد جو: تلقيت أيضاً رسالة من زميلنا السيد ماسينيون الذي يمر بموقف عصيب؛ فابنه الأكبر قد مات فجأة في ليلة الثلاثاء وفي صباح الأربعاء رحل ابنه الأصغر لإجراء عملية جراحية. ولم يتسن له المشاركة في تنمة أعمالنا وهو يرجوني أن أعذره.

«وأنا أبعث إلى السيد ماسينيون بتعاطفي وكذلك بتعاطف جميع أعضاء اللجنة».

ويعتذر ماسينيون عن المشاركة في الدورة الخاصة المعقودة في مارس/ آذار ١٩٣٦.

• ماسينيون والشرق الأدنى

بالإضافة إلى آرائه حول الجزائر، يهتم ماسينيون بالشرق الأدنى. وبعثته، من ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٧ إلى ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٨، لا تتصل فقط بالطوائف الحرفية والتعليم العام، وإنما تتصل عموماً بالوضع السياسي والاجتماعي في سوريا. وهو ينتقد النوعية السيئة هناك للوظيفة العمومية الفرنسية المحلية التي، في غالبيتها الأعظم، تتجاهل استخدام العربية:

«يتوجب، في أقل القليل، استلهاً النمط الإداري الأنجلو - عراقي: قليل من الموظفين، تعاقدات برواتب عالية وامتحانات تصفية بعد عام ونصف فيما يتعلق بمعرفة لغة البلد».

وهو يواصل معارضة السياسة المتبعة في لبنان وبشكل أعم المنظور المتبع والخاص بالتغلغل من الساحل إلى الداخل (صدارة بيروت) في حين أنه يجب العمل انطلاقاً من دمشق، بؤرة النزعة القومية المؤسسة على الوحدة السورية. والحال أن الخطأ الكبير لعمل فرنسا هو عدم الاستناد إلا على حالة الحصار:

«كيف يمكن تطبيع الموقف؟ إن السياسة الكولونيالية «الساحلية» ليس لها غير قيمة دفاعية واستراتيجية، وهي ليست

سياسة انتداب إيجابية. وسياسة التحرير الديمقراطي للفلاحين والحرفيين (أنظر التقرير الملحق) هي شيء سابق لأوانه: وسرعان ما سوف تتحط من جهة أخرى لتصبح بلشفية وسوف تستثير احتجاجات فورية من جانب الدول المجاورة. تبقى سياسة واحدة، هي السياسة التي وصلت إنجلترا، بعد حل البرلمانات المحلية أكثر من مرة، إلى تطبيقها في مصر وفي الهند وسوف تسعى، عبر حل برلمان بغداد، إلى تطبيقها أيضاً في العراق. انها سياسة التعاون مع الجناح اليميني للتحالف القومي. وهي سياسة صعبة وشاقة ومضنية، وعرضة لكثير من الهزات، لكنها السياسة الوحيدة التي تحقق فعلياً وعملياً "انتداباً من جانب عصابة الأمم".

وهو يقدم سلسلة بأكملها من الاقتراحات المحددة الخاصة بالكوادر السياسية السورية.

وإقامته الثانية في عام ١٩٢٨، من ١٠ أكتوبر/ تشرين الأول إلى ١٦ ديسمبر/ كانون الأول، تستعيد هذه الأفكار نفسها. وهو يهاجم بقوة «التمشرق»:

«في بيروت خاصة أتيح لي أن أرصد بين السوريين والأوروبيين سوء التفاهم الروحي المتزايد الذي أشرت إليه أنفاً إن السوريين، بينما يستفيدون من الآتيا، يعفون أنفسهم من الاقتداء بروحنا البحثية معلنين السفسطة الكسولة، الرائجة بالفعل في مصر،

والتي تذهب إلى أننا ندين لهم بأصل ثقافتنا وأنا لا نفعل غير سداد
ديننا لهم. والفرنسيون الموجودون في المشرق، عبر سفسطة كسولة
أخرى، يعلنون أنه لا فائدة من السعي إلى تهذيب أخلاق السوريين
وأن سوريا هي بلد البقشيش والمشنقة والاستسلام للشر، وهم
يستفيدون من ذلك، للأسف، لكي «يتمشرقوا» وينقلوا أحياناً
ميكروب التمشرق إلى فرنسا. على أن من المؤكد أننا يجب، لما
فيه صالحنا نفسه، أن نعمل على «إنهاء تمشرق» سوريا وإعادة
تكييف نخبتها المثقفة، التي تلقت العلم عندنا، مع واجبات ملموسة
ومحددة؛ وفي الساحة، أخيراً، يجب أن نحول التوجه الحرفي
للحرفيين السوريين».

ونقد مصلحة الاستخبارات [الفرنسية] في المشرق هو أحد
النصوص الأكثر توضيحاً لمنظور ماسينيون العلمي والسياسي:

«من الناحية الإدارية، لا أملك غير تأكيد الانطباعات
الموصوفة في تقرير المؤرخ في ٣١ يناير/ كانون الثاني
الماضي. فببطء ولكن بشكل مؤكد، يجتهد الجهاز القيادي في إقحام
الموظفين أن الإدارة المباشرة ليست الهدف النهائي لنظام الانتداب.
ونقطة الاتصال بين النظام المدني والهيكل العسكري لاحتلالنا هي
مصلحة الاستخبارات. ومن بين ٧١ ضابطاً، سوف نجد أن ثلثهم
مستعد تماماً للتخصص في ما يعد الوظيفة المثمرة فعلاً لهذه

المصلحة المهمة والتي لا تتمثل مهمتها في محض الانقلاب على سياسة سطحية أو دسائس مشرقية بل في التعرف المنهجي على القوى السياسية والاجتماعية وروافع قيادة البلد، وهو ما نجحت الإدارة العامة لشئون الأهالي في المغرب في الاضطلاع به على نحو جيد. ومن سوء الحظ أن المديرين الثلاثة الذين تعاقبوا على مصلحة الاستخبارات في سوريا، السادة كابيتزل ودينتز وكاترو، لم يقوموا بأي توثيق أساسي مع أن استمرارية مصلحة الاستخبارات تعتمد على ذلك اعتماداً جوهرياً. والحال أن هذا هو ما نهتم الآن بعلاجه: إن لدينا الكثير من الضباط المؤهلين لإجراء دراسات اجتماعية محلية ومن واجبي أن أعبر عن شكري لعدد منهم لما قدموه لي من دعم في هذا الصدد في استقصائي الخاص بالمنظمات الحرفية والزراعية».

ويلعب ماسينيون دوراً بالغ النشاط في إدارة المعهد الفرنسي بدمشق. وقد بذل مجهوداً قوياً في دفع هذه المؤسسة التي أنشأها الانتداب إلى التوجه نحو مسائل السوسولوجيا الإسلامية. وهو ينجح في الحصول على موافقة لإنشاء الشعبة العلمية للمستعربين، في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٨، ثم في تحويل هذه الشعبة إلى معهد مستقل، في يوليو/ تموز ١٩٣٠. وهو يساند بقوة ترشيح روبير مونتاني، القادم من المغرب. ويمكن القول إن برنامج

السوسيولوجيا الذي ارتآه ماسينيون سوف يحققه مونتاني، أولاً في دمشق، ثم عبر المحادثات حول تطور بلدان الحضارة العربية وأخيراً عبر إنشاء الـ C.H.E.A.M. [المجلس الأعلى للدراسات العربية والإسلامية].

ويعود ماسينيون إلى الشرق الأدنى في ١٩٣٠ - ١٩٣١، لكنني لم أعر حتى الآن على تقريره الخاص بهذه البعثة. وبالمقابل فإن تقريره عن البعثة التي سوف تستمر من ١٨ يناير/ كانون الثاني إلى ٢٦ مارس/ آذار ١٩٣٤ متاح. وهو يتصل بإقامة في مصر وبإقامتين في سوريا وإقامة في العراق.

وهو يهتم في هذا التقرير بمسألة مستقبل اللغة العربية كلغة حضارة وذلك بوجه خاص مع نتائج الدورة الأولى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولأول مرة منذ وقت طويل، يتناول مسألة الصهيونية:

«الصهيونية

«خلال مروري بفلسطين، استأنفت الاتصال بالأوساط الصهيونية التي أعرفها منذ عام ١٩١٧: ليس فقط في القدس (الجامعة اليهودية) وإنما أيضاً في تل أبيب. ودون الدخول في تفاصيل مسهبة، فإن استنتاجي الجازم هو:

« ١. أن النهوض الصناعي الحالي للاستيطان الصهيوني، والذي أحدث انطباعاً قوياً في أوروبا، وذلك بفضل الدعاية الذكية، إنما يرجع جزئياً إلى اتفاق هتلر- رابين المعقود في هذا الصيف، وأنه لا يجب المبالغة في تحديد أمدته؛ وأنه من السخف أن نتصور أنه، دون وجود القوات الإنجليزية، سوف يكون بوسع التشكيلات القتالية التي يسعى الصهيوونيون إلى تكوينها أن تصمد للحظة أمام الحصار الضخم الذي تمثله الغالبية المسلمة التي تتجه، هي أيضاً، إلى تعبئات عسكرية وتبدو ساخطة بشكل متزايد.

« ٢. أن المفوضية العليا الفرنسية في المشرق يجب أن تقاوم أيضاً (كما فعلت ذلك بالفعل)، بكل ما لديها من قوة، محاولات الاستيطان الاقتصادي الصهيونية التي تحاول تدخلات مالية قوية غرسها في جنوبي سوريا (شراء أراضي آل يوسف). والوثائق التي جمعتها في هذا الصدد توضح لي أنه لو استسلمت فرنسا لهذه المحاولات فسوف تراق الدماء من جديد في سوريا».

وهو يتحدث عن مسألة علويي سوريا وينزعج من مصيرهم في المستقبل في إطار سوريا موحدة:

«سوف يتطلب الأمر أيضاً خمس عشرة سنة من الإدارة الفرنسية المباشرة حتى يتسنى لهؤلاء الفلاحين استيعاب حقوقهم تماماً ومقاومة العودة الهجومية من جانب سادتهم السابقين».

وهو «يظل مقتنعاً بأن منح طرابلس حصانة سياسية، بإنهاء ضمها إلى لبنان دون إعادتها إلى سوريا لتصبح مركزاً اتحادياً أكان ذلك من وجهة نظر مجلس المصالح المشتركة أم من وجهة النظر الاقتصادية (مرسي، محطة سكك حديدية، مطار، خط أنابيب)، إنما يظل بالنسبة لنا أفضل حل يمكن تصوره إذا كنا لا نريد، من تنازل إلى آخر، أن نحقق الوحدة السورية ضدنا».

وكان قد جرى إرساله إلى العراق، بصحبة جابرييل بونور، لدراسة مسألة الأعمال المدرسية. وحيال خطر رؤية الدولة العراقية تتجه إلى احتكار المدارس الأجنبية بشكل شمولي، يساند فكرة إنشاء مدارس فرنسية - عربية تقبل بعض المطالب القومية العراقية كالدروس القومية. وهذا يفترض عقد اتفاق مع الحكومة العراقية ومن شأن إيجاد مفوضية للعراق في باريس أن يسهل الأمور كثيراً. وهو يستفيد من إقامته ليسجل ملاحظة حول مسألة الشيعة في العراق:

«في مجمل عموميتها، تعد المسألة الشيعية الآن جد محتدمة في العراق. ومن المعلوم في الواقع، بحسب الإحصاءات الأخيرة، أن الشيعة في العراق يزيدون عن السنة بنسبة الثلث ويخوض الشيعة حملة بالغة القوة والانتظام للتوصل إلى أن يكون توزيع المناصب في الوزارات والإدارات بحسب الأهمية العددية لكل

وسط من الأوساط الطائفية، وهو ما يعد بعيداً عن واقع الحال:
فالشيعية لا يحوزون ولو عشر المناصب في الإدارات الرسمية
والسنة يقاومون مطالبهم بقوة مطردة التزايد».

وفي ٢١ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٤، تدرس اللجنة
الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية الحج المغربي. وفي
هذه المناسبة:

١٤٩ «يتساءل السيد ماسينيون ما إذا كانت هناك أوقاف
مغربية في الحجاز وما إذا كان قد تم إجراء حصر لها. [رد بن
غابريت: أوقاف مغربية مدارة من جانب إدارة الحبوس].

١٥٠ «يلفت السيد ماسينيون انتباه اللجنة إلى مسألة سكة حديد
الحجاز التي تعتبر وقفاً، كما يلفت الانتباه إلى وقف أبو مدين في
القدس. وهو يطالب بحماية حقوق المغاربة المتصلة بهذين
الوقفين».

والحال أن هذا بداية شاغل سوف يقود ماسينيون إلى دراسته
العظيمة عن وقف أبو مدين وسوف يقود فرنسا إلى الاهتمام سياسياً
بمسألة الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس.

ويعوزني التقرير الخاص بإقامة عام ١٩٣٥.

أما إقامة عام ١٩٣٦، من ٩ يناير/ كانون الثاني إلى ٢١ مارس/ آذار، فهي تتعلق بمصر وفلسطين والانتداب الفرنسي. وهي مهمة لأنها معاصرة لفترة توتر سياسي شديد في هذه المناطق الثلاث.

وفي مصر، يستحضر أعمال مجمع اللغة العربية، لكنه يتحدث أيضاً عن حوارهِ مع عميد الأزهر، الشيخ مصطفى المراغي. ووفقاً لماسينيون فإن:

«العميد، وهو يحدثني عن التكوين الشخصي لفكره، قدم إليّ الخطوط العريضة لحدائث معتدلة معينة تستعيد، تحت شكل يتماشى مع الوقت الحاضر، الخطوط العريضة لبرنامج سلفه، الشيخ [محمد] عبده».

كما يتحدث ماسينيون عن الاضطرابات الطلابية مثلما يتحدث عن خطر تمردات من جانب الفلاحين المستنارين «من شأنها تجديد جرائم ١٩١٩».

وهو يبرز عجز علي مستقبل الأقباط:

«ومن ثم فالمستقبل جد مظلم لأن هذه الطائفة القبطية القائلة بوحدة طبيعة المسيح مصريةً بشكل أصيل وفريد. وهي تمثل السكان الأصليين وليس أمامها من بلد أجنبي تهاجر إليه».

لقاء مع الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس الأكبر:

«رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي نظّمته الحكومة البريطانية ورئيس المجلس الدائم للمؤتمر الإسلامي الجامع وزعيم ديني، كان أمين صندوق التمرد الدرزي في عام ١٩٢٥ ويعتبر على اتصال بصناديق الدعاية الإيطالية من خلال صديقه، الأمير شبيب أرسلان.

«اللقاء الذي رتبته صديق قديم مشترك، جعلني أراه من جديد تحت مظهر جد مختلف عما كانت عليه الحال في عام ١٩٢٠ وفي عام ١٩٢٧. لقد حاولت أن أفهم كيف ينظر إلى طاقات الاستقلال السوري القادم حيال الرأسمالية الصهيونية المستتدة إلى مطالبات إنجليزية بجبل الدروز (لحماية خط الأنابيب). والواقع أن تحفظاته قد أعطتني الانطباع بأنه ربما كانت له في واقع الأمر صلات إيطالية. وقد اتضحت لي خلال اللقاء مسألة تاريخية. فإذا كان مشروع المعاهدة الفرنسية - السورية (الذي عملت من أجله في باريس، مع فؤاد الخطيب، والذي كان كليمنصو وفيصل قد وقعا عليه بالأحرف الأولى) قد فشل في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠، فمرجع ذلك هو أن فيصل لم يكن حكيماً إذ سلم نسخته من المشروع إلى حداد باشا الذي تحدث عنه إلى اللورد كيرزون في لندن. والحال أن اللورد كيرزون الذي كان منخرطاً آنذاك في بلاد

الرافدين في سياسة قمع وحشي، لم يحرص على أن يرى نفسه وقد
أضرَّ به اتفاق فرنسي - عربي، وبما أن ف.بيرتلو كان قد حضر
أنداك إلى لندن للنظر في بنود معاهدة سيفر (التي أطلعني في
الواقع على نسختها الأصلية بخط اللورد كيرزون) فقد تمكن اللورد
كيرزون من إحباط المشروع.

«ويدرك المفتي تماماً التقدّمات الصهيونية؛ وإذا كان
الصهيونيون لم يفوزوا بالعمدية إلا في طبرية وإذا كانت عمديتا
القدس وحيفا ما تزالان للعرب المسلمين، فمرجع ذلك هو نظام
انتخابي لا يملك حق التصويت فيه غير دافعي الضرائب حيث لا
تظهر غالبية المستوطنين الصهيونيين التي تعتبر فقيرة».

وتتزامن نهاية إقامة ماسينيون في سوريا مع الإضراب العام
السوري وتشكيل وفد سوري مكلف بالتفاوض على معاهدة مع
فرنسا.

ويلتقي ماسينيون مع اثنين من المسئولين:

«في دمشق، في لقائين مطولين مع هاشم الأتاسي، رئيس
الوفد، ورياض الصلح، المستشار شبه الرسمي للوفد، تسنى لي
التعرف على الصعوبة التي يواجهانها في محاولة إقحام أنصارهما
المخاطر الخارجية التي تهدد حلمهما في الاستقلال السوري:

الجيش التركي في الشمال (مع عقبة الاسكندرونة) وتقدم الصهيونيين الاقتصادي في الجنوب (مع ميناء حيفا كقاعدة). وتحظى فكرتان رئيسيتان بالقبول: معاهدة من النمط العراقي (والتي كانت عاجزة مع ذلك عن حماية الأقلية الآشورية - الكلدانية) وقضم لبنان (بدءاً بأخذ طرابلس منه)، لبنان هذا الذي تأورب منذ ثمانية عشر عاماً بشكل جد ملحوظ. وأخيراً، لا يجرؤ هؤلاء القوميون على مجرد التفكير في تحديث القانون المدني، الأمر الذي أقدمت عليه بعد تركيا إيران ومصر والعراق (اللجنة البرلمانية المشكلة هذا العام) (من المؤسف أن نلاحظ أننا قد عززنا الإسلام الرجعي، في دمشق كما في الجزائر)».

وفي ٥ يونيو/ حزيران ١٩٣٦، يقدم ماسينيون انطباعاته حول المسألة السورية إلى اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية:

«في اللحظة التي يهتم فيها الجميع بالحركة القومية العربية، حيث تعمل إيطاليا من أجلها وحيث تسعى إنجلترا إلى تسهيل قيام اتحاد كونفيدرالي عربي، لا نفعل نحن شيئاً في هذا المجال. ويوجد في باريس الآن وفد سوري حاصل على تكليف من الهيئة العربية العامة. والحال أننا موجودون في سوريا لأجل غاية ثقافية وللوفاء

بالعودة التي قدمناها إلى المسيحيين وسوف يتعين أن نعيد وضع حماية الأقليات ضمن إطار سياسة ثقافية مؤيدة للعرب بشكل سافر؛ وذلك بالعمل على أن يقبل الوفد السوري أن يدرس بنفسه، ومن الداخل، مشكلة الأقليات، وبحثاً هذا الوفد على صياغة قانون مدني عربي حديث. وأنا لا أؤمن كثيراً بفعالية مجرد إشارة، في المعاهدة الفرنسية - السورية، إلى وضعية الأقليات، على نحو ما فعلت المفوضية العليا مؤخراً.

«ثم إنني ألفت انتباه اللجنة إلى أصداء المعاهدة الفرنسية - السورية على حياة لبنان نفسها. فلحماية هذا البلد يجب العمل على أن يقبل لبنان أولاً البنود الخاصة به والتي سوف تدخل في المعاهدة الفرنسية - السورية، وإلا فسوف يحدث للبنانيين ما حدث للعلويين.

«وأخيراً، هناك مشكلة طرابلس، المدينة المسلمة الوحيدة على الساحل: يتعين إيجاد وضعية خاصة لهذه المسألة».

ولم يتح لي الوقت بعدُ لإجراء تسجيل منهجي لمداخلات ماسينيون في الأعوام الأخيرة للجمهورية الثالثة، خاصة في إطار اللجنة العليا للبحر المتوسط. إن المسألة السورية تظل عنصراً أساسياً في شواغله، في حين أنه يجري تعديل المعاهدة الفرنسية -

السورية بشكل منتظم من جانب الحكومة الفرنسية التي تُفقدُها جانباً كبيراً من أهميتها. ويبدو أن ماسينيون قد علق آمالاً كبيرة على شخصية جابريل بيبو، الذي عين في أواخر عام ١٩٣٨ مفوضاً سامياً في المشرق، كما تشهد على ذلك هذه الرسالة التي يوجهها إليه في ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨:

«باريس، ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨

«السيد السفير والصديق العزيز،

«من الأرجح أنه من غير المأمول أن يكون بوسعي عمل شيء آخر غداً سوى أن أصافحك في ذلك اللقاء. ولذا فإنني أكتب إليك لكي أقول إنه لا يجب على أية حال اليأس تماماً من تصور فعلٍ تقارب فرنسي - عربي في المشرق في الساحة الدينية الإسلامية، وذلك بالرغم من تعلمن الشبيبة بالغ التقدم. فالواقع أن هناك أناساً، في دمشق كما في بيروت، يهتمون بإصلاح معنوي للمجتمع الإسلامي يستند إلى إعادة تنظيم لكرليات الالهيّات على أسس تقليدية.

«ولا يتعلق الأمر البتة بحركة شبه وهابية. فهذه الحركة الأخرى (القوية جداً من جهة أخرى) يصعب عليها التكيف مع تعاون معنا: والحال أن صديقنا لاوست، أميننا العام في دمشق،

والعليم بالأمر بسبب مكانته الممتازة، سوف يشرح لك ذلك. كلا، إن أولئك الذين أفكر فيهم هم جماعة ذات اتجاه أكثر محافظة وألفت انتباهكم خاصة، في بيروت نفسها، إلى صديقي القديم نور الدين بيهوم، في المتحف الوطني اللبناني، الذي كتب لي قبل بضعة شهور لكي يشدد على ضرورة الاتجاه، بدعم من الحكومة الفرنسية، إلى إنشاء نوع من معهد للدراسات الإسلامية في دمشق، بما يشكل نوعاً من أزهر مجدّد من وجهة النظر العربية. وجميع الرسائل التي ألقاها تلفت انتباهي إلى عودة جد واضحة إلى المشروع القديم الخاص بالاتحاد الكونفيدرالي العربي والذي لم تكف إنجلترا عن تأييده منذ سنوات كثيرة.

«ولا يجب أن نتخلف عن هذه الحركة الفكرية. وليس بوسعنا بالطبع أن نقدم لها عين التعاون النشط الذي تقدمه بريطانيا العظمى، وذلك بسبب شمالنا الأفريقي، إلا أنه يبدو لي أن كل ما من شأنه أن يعزز في دمشق وفي بيروت تجديد ثقافة عربية جادة وعميقة يجب أن يلقى دعمنا وتأييدنا المدروس. وفي هذا المجال أيضاً، فإن لاوست هو الرجل الذي يمكنه في الساحة أن يشرح لكم الأمور وأنا حريص على أن أكرر ذلك لكم كتابةً.»

ومن الواضح أن ماسينيون هو أحد ملهمي مراسيم المفوض السامي حول تعديلات الأحوال الشخصية للسكان تحت الانتداب.

وهي تمنى بالفشل بسبب التظاهرات الشعبية العنيفة التي تدفع ببيسو إلى تعليق هذه المراسيم. والحال أن المأزق السياسي الذي يوجد فيه التعاون الفرنسي - السوري عندئذ إنما يقود الفرنسيين في الشهور التالية إلى العودة إلى إدارة مباشرة لسوريا، بينما يعهد ببيسو إلى مجموعة صغيرة من الخبراء في باريس بالتعديل التالي للدستور السوري. ويبدو أن ماسينيون يرفض آنئذ الدخول مباشرة في المناقشة كما تشهد على ذلك هذه الرسالة من مونتاني إلى ببيسو والمؤرخة في ١٠ يونيو/ حزيران ١٩٣٩:

«نتوصل إلى نجز في " السياسة الخارجية " الجزء الأول من العمل الخاص بالدستور السوري. وقد امتنع السيد ماسينيون تقريباً عن الحضور، لكننا حصلنا على تأكيدات بالتعاون الفعال والمنتظم من جانب السادة روبر دو كيه والأب الجليل جالابير والقومندان دو فرييه والكابتن روندو والبروفيسور جيدل. وأفكر في أن أرسل لكم محرراً الذي يتعلق أساساً بمجلس الشيوخ، عبر بريد الأربعاء. وقد جرى الاضطلاع بهذا البحث على افتراض أن سوريا سوف تحتفظ بالنظام الجمهوري. وإذا كان من الممكن حدوث عودة ملكية، فإن اختصاصات مجلس الشيوخ سوف يكون بالإمكان تعزيزها بسهولة. ونحن منكبون الآن على دراسة تنظيم مجلس ضمان؛ والحال أن الكابتن روندو هو الذي يتولى مهمة التحرير الرئيسية. وآمل أن ننهي عملنا بحلول ١٥ يوليو/ تموز».

وتحت تأثير التظاهرات الإسلامية، قرر بيبو التحول صوب الإسلام لمواجهة نزعة قومية عربية بدت له آفة. وقد تحدث عن ذلك إلى ماسينيون الذي حضر إلى سوريا في مستهل عام ١٩٤٠ وهو يستحضر الأمر في رسالة بتاريخ ٢٩ يناير/ كانون الثاني إلى لابيير، مدير مكتب المشرق في باريس:

«أشكرك على رسالتك المؤرخة في ٢٤ يناير/ كانون الثاني وعلى جولة التوزيع التي مكنتني من أن أرى من جديد بعض الأصدقاء في الصحافة. يبدو أن هذا التوثيق يمكن أن يكون مفيداً. وقد أدركت ذلك بشكل أفضل خلال الحديث مع ماسينيون الذي قضى بضعة أيام هنا مؤخراً. لقد كان مندهشاً جداً من التغيير الذهني للسوريين وبما أنه قد أرجعه إلى وجود قوائنا التي زادت زيادة قوية، فقد كان عليّ أن أوضح له أن المناخ موجود منذ يوليو/ تموز، قبل وقت طويل من حصولنا على تعزيزات. وكان علي ماسينيون أن يعترف بأفول الفكرة القومية. وقد صدمه، في المقابل، أن يرى نهضة دينية معينة للإسلام. وقد ذكرته بأنني قبل الذهاب إلى سوريا كنت قد سألته ما إذا لم يكن بوسعنا الاعتماد على بعض العناصر الدينية، المحافظة من حيث الجوهر، وإن كانت ذات توجه عالمي بما يكفي للتمكن من مقاومة الشيطان القومي. وفي تلك اللحظة كان يعتقد أن ذلك مستحيل. وهو يعترف بأن هذا الأمل لم يعد الآن وهمياً».

● خلاصة مؤقتة

كان من الواضح تماماً أنني قصدت ألا أشير في أي مكان إلى المقاربة الصوفية للإسلام والتي تميز عمل ماسينيون. ويبدو لي أن عينة الوثائق التي جمعتها تتميز بمأثرة الإشارة إلى عدد من الخطوط الرئيسية.

فبادئ ذي بدء، نجد أن عمل ماسينيون الجامعي والسياسي في ظل الجمهورية الثالثة إنما يدور في إطار سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي إلى الدرجة التي يمكن معها القول بأن عمل ماسينيون السوسيولوجي حتى عام ١٩٤٠ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بشواغل سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي. وفي بعض الحالات، سوف نجد أن أجزاءً بأكملها من النصوص تعد متطابقة في المقالات المنشورة وفي التقارير الإدارية. وهذا الجانب من عمل ماسينيون إنما يشهد على الأسلوب الذي تمكنت به الجمهورية الثالثة، منذ بداية القرن، من دمج سلسلة بأكملها من الجامعيين المتخصصين في العالم الإسلامي في تعريف سياستها وهو ما لن تتمكن من فعله لا الجمهورية الرابعة ولا الجمهورية الخامسة، حتى وإن كان المجلس الأعلى للدراسات العربية والإسلامية قد لعب دوراً معيناً.

والنقطة الجوهرية الثانية هي أنه لا يمكن اعتبار لويس ماسينيون عميلاً للاستخبارات، بل يمكن اعتباره بالأحرى «ناصحاً

للأمير»، حتى خلال الحرب العظمى [١٩١٤ - ١٩١٨]. ومستوى مداخلته يشير إلى رغبة متصلة في دمج منظور سوسولوجي في تعريف سياسة في الأمد الطويل كما يشير إلى رفض لصلاحيات إرشادات مصلحة الاستخبارات المسارعة إلى الدسائس وإن كانت عاجزة عن رصد التطورات الجارية.

وهذه السياسة ذات الأمد الطويل يمكن تعريفها بأنها «ليبرالية»: فالأمر يتعلق، من جهة، بتخفيف صدمة الاستعمار عبر إبداء احترام أكبر للثقافة العربية والإسلامية. وخلال مجمل تلك الفترة، يدعو ماسينيون إلى إعطاء دور كبير للتعبير باللغة العربية التي لا يجب خنقها عبر فرانكوفونية تُفرض بشكل سلطوي بقدر الاتجاه إلى تقييد المجالات التي يمكن استخدام اللغة العربية فيها. لكن الأمر يتعلق، من جهة أخرى، برؤية تطويرية للثقافة العربية: إن الاهتمام الذي يبديه ماسينيون مثلاً تجاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة إنما يتركز خاصة على الأسلوب الذي يمكن به اللغة العربية أن تعبر عن الحداثة.

ورؤية ماسينيون التطورية هذه تتواجد أيضاً في مفهومه عن الإسلام. وبما أن من المؤكد أنه قد تأثر تأثراً كبيراً قبل عام ١٩١٤ بلقائه مع الأوساط السلفية، فقد تعلق بمنظور حدثي لتطور الإسلام يميل إلى تقارب تدريجي للأعراف ومن ثم للنظم القانونية بين

المتروبول والبلدان الإسلامية التابعة له. وهكذا تجده يشدد على تجليات تحرر المرأة في المشرق ويقترحها كنماذج بالنسبة للمغرب.

وما يتوخاه بشكل رئيسي هو التوصل إلى تحرر إسلامي يكون انفتاحاً على الحداثة في إطار فرنسي قائم على التسامح والانفتاح الفكري. لكنه ليس غير فاعل وحيد بين آخرين في لعبة علاقات القوة التي تقرر سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي. وإذا كان لم يجر الإصغاء إليه وإتباعه دائماً، فما لا جدال فيه أن آراءه قد لقيت الاحترام في الأوساط الحاكمة للجمهورية الثالثة. والحق إنه يتمتع، إلى حد معين، وذلك بسبب مشاركته في بعثة بيكو، بدائرة واسعة من علاقات الصداقة مع مسئول الكيه دورسيه [وزارة الخارجية] في حين أن علاقاته مع العسكريين تعد بالأحرى متوترة (أنظر انتقاداته لمصلحة الاستخبارات عموماً ولكاترو بوجه خاص). ومن المفارقات أن مونتاني الذي يأخذ في الحلول محله منذ النصف الثاني للثلاثينيات كناصح للأمير، له علاقات مع العسكريين أوسع من علاقاته مع الديبلوماسيين.

والحال انه لا يمكن تفسير تمسك ماسينيون برؤية حداثية للإسلام إلا إذا اعتبرنا الإسلام المقصود ليس إسلاماً أبدياً مجمداً بل ديناً - مجتمعاً في حركة. وفي الثلاثينيات، لا يتجاهل الأستاذ في

الكوليج دو فرانس التصلب المذهبي والانغلاق الثقافي المؤكد اللذين تعرفهما الأوساط السلفية المواقبة لدخول أكثر مباشرة إلى السياسة مع مولد الإسلام السياسي بالمعنى المحدد للمصطلح (الإخوان المسلمون في مصر). وظهور مصطلح «شبه الوهابي» في نسقه المرجعي إنما يشير بوضوح إلى أنه يميز بين الحدائيين وأولئك الذين، مع انبثاقهم من الوسط نفسه، سوف يكونون نقاده ثم خصومه.

والخلاصة أننا نجد أن مكانة لويس ماسينيون في سياسة الجمهورية الثالثة حيال العالم الإسلامي هي مكانة الرجل الذي كانه على مدار حياته، أي مكانة رجل كان يريد التوفيق بين الفرنسيين والمسلمين، وهو توفيق موضوع تحت شارة الضيافة المقدسة.

المصادر

Ce travail est fondé sur un dépouillement partiel des archives françaises et doit être considéré comme un aperçu et non comme une version définitive. Je remercie Mme Jalila Sbai sans qui ce travail sur la politique musulmane n'aurait pas été possible.

MAE, Nantes, Jérusalem, B, 71.

Je m'appuie ici sur le d'epouillement d'archives sur Massignon durant les années de guerre et les années 1920 fait par Gérard Khoury qui a accompli un travail pionnier, en particulier dans les archives rapatriées du Ministère des Affaires Etrangères. Il doit être considéré comme «l'inventeur» de ces archives. MAE, K, 102, 1.

Opera Minora, I, pp. 271-286.

Opera Minora, III, pp. 454-460.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 29 Janvier 1927, 44.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 9 Juin 1927.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 14 février 1928.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 6 mars 1928-137^e séance.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 8 mai 1928-138^e séance.

CIAM du 14 février, 144^e séance, suite de l'exposé de Massignon, précisions et éclaircissements.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15, CIAM du 31 mai, 146^e.

Il est référé, *passim*, à la brochure officielle du Gouvernement général («Lois, décrets et arrêtés concernant les réformes indigènes», Alger 1919); brochure qui serait à rééditer avec insertion des modifications effectuées depuis cette date.

Annuaire statistique du royaume d'Égypte pour 1927-1928.

CIAM 21 (les cotes Commission Interministérielle des Affaires Musulmanes 20 et 21 renvoient à deux cartons des archives du Quai d'Orsay qui doivent probablement correspondre à une partie des papiers d'Augustin Bernard non intégrés au fonds Augustin Bernard).

16 décembre 1931, Papiers Augustin Bernard, vol. 16.

Papiers Augustin Bernard, vol. 16 CIAM 20.

CIAM 20, CIAM du 19 mars 1934, 174^e.

CIAM 20, Session spéciale du 1^{er} mai 1934.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15, CIAM du 30 octobre 1934 178^e.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15.

CIAM 20.

CIAM 20.

MAE, Afrique, 1930-1940, Égypte, 121.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15, CIAM du 21 décembre 1934, 179^e.

MAE, Afrique, 1930-1940, Égypte, 121.

MAE Levant 1930-1940, Syrie Liban, V492, 161.

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية:

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية.
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية.
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب.
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين.
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة.

المشروع القومي للترجمة

ت . أحمد درويش	جون كوين	١- اللغة العليا (طبعة ثانية)
ت . أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهور باننيكار	٢- الوثنية والإسلام
ت : شوقي جلال	جورج جيمس	٣- التراث المسروق
ت : أحمد الحضري	انجا كاريتكوفنا	٤- كيف تتم كتابة السيناريو
ت : محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	٥- ثريا في غيبوبة
ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	٦- اتجاهات البحث اللساني
ت : يوسف الأنطكي	لوسيان غولدمان	٧- العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : مصطفى ماهر	ماكس فريش	٨- مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أندروس. جودي	٩- التغيرات البيئية
ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي	جيرار جينيت	١٠- خطاب الحكاية
ت : هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	١١- مختارات
ت : أحمد محمود	ديفيد براونستون وايرين فرانك	١٢- طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	١٣- ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نويل	١٤- التحليل النفسي للأدب
ت : أشرف رفيق عفيفي	إدوارد لويس سميث	١٥- الحركات الفنية
ت : بإشراف أحمد عثمان	مارتن برنال	١٦- أثينة السوداء
ت : محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	١٧- مختارات
ت : طلعت شاهين	مختارات	١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جورج سفير-س	١٩- الأعمال الشعرية الكاملة
ت : يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	٢٠- قصة العلم
ت : ماجدة العناني	صمد بهرنجي	٢١- خوخة وألف خوخة
ت : سيد أحمد علي الناصري	جون أنتيس	٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين
ت : سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	٢٣- تجلي الجميل
ت : بكر عباس	باتريك بارندر	٢٤- ظلال المستقبل
ت : إبراهيم النسوقى شتا	مولانا جلال الدين الرومي	٢٥- مثنوى
ت : أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	٢٦- دين مصر العام
ت : نخبة	مقالات	٢٧- التنوع البشرى الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	٢٨- رسالة في التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارس	٢٩- الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهور باننيكار	٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)
ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى
ت : مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روس	٣٢- الانتقراض
ت : أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هويكنز	٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية
ت : حصة إبراهيم المنيف	روجر آلن	٣٤- الرواية العربية
ت : خليل كلفت	بول . ب . ديكسون	٣٥- الأسطورة والحداثة

- ٢٦- نظريات السرد الحديثة
٢٧- واحة سيوة وموسيقاها
٢٨- نقد الحداثة
٢٩- الإغريق والحسد
٤٠- قصائد حب
٤١- ما بعد المركزية الأوربية
٤٢- عالم ماك
٤٣- اللهب المزوج
٤٤- بعد عدة أصياف
٤٥- التراث المنثور
٤٦- عشرون قصيدة حب
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
٤٨- حضارة مصر الفرعونية
٤٩- الإسلام في البلقان
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
٥١- مسار الرواية الإسبانية الأمريكية
٥٢- العلاج النفسي التدميمي
٥٣- الدراما والتعليم
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح
٥٥- ما وراء العلم
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
٥٨- مسرحيتان
٥٩- المحبرة
٦٠- التصميم والشكل
٦١- موسوعة علم الإنسان
٦٢- لذة النص
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية
٦٧- مختارات
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى
٦٩- العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى
- والاس مارتن
بريجيت شيفر
الن تورين
بيتر والكوت
ان سكستون
بيتر جران
بنجامين بارير
أوكتايفو بات
ألوس هكسلي
روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
بابلو نيرودا
رينيه ويليك
فرانسوا دوها
ه . ت . نوريس
جمال الدين بن الشيخ
داريو بيانوبيا وخ . م بيناليستي
بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج .
روجسيفيتز وروجر بيل
أ . ف . ألجتون
ج . مايكل والتون
جون بولكنجهوم
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
فديريكو غرسية لوركا
كارلوس مونييث
جوهانز ايتين
شارلوت سيمور - سميث
رولان بارت
رينيه ويليك
ألان وود
برتراند راسل
أنطونيو جالا
فرناندو بيسوا
فالنتين راسبونين
عبد الرشيد إبراهيم
أوخينيو تشانج رودريجت
داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
ت : جمال عبد الرحيم
ت : أنور مغيث
ت : منيرة كروان
ت : محمد عيد إبراهيم
ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / مصود ملج
ت : أحمد محمود
ت : المهدي أخريف
ت : مارلين تادرس
ت : أحمد محمود
ت : محمود السيد على
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : ماهر جويجاتي
ت : عبد الوهاب علوب
ت : محمد يرادة وعثمانى الملوذ ويوسف الأنطكي
ت : محمد أبو العطا
ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
ت : مرسى سعد الدين
ت : محسن مصيلحي
ت : على يوسف على
ت : محمود على مكى
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
ت : محمد أبو العطا
ت : السيد السيد سهيم
ت : صبرى محمد عبد الغنى
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
ت : محمد خير البقاعى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : رمسيس عوض .
ت : رمسيس عوض .
ت : عبد اللطيف عبد الطيم
ت : المهدي أخريف
ت : أشرف الصباغ
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد هشاد
ت : حسين محمود

- ٧٢- السياسي المعجوز ت . س . إليوت
- ٧٣- نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
- ٧٤- صلاح الدين والمالِك في مصر ل . ا . سيمينوفنا
- ٧٥- فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
- ٧٦- جاك لاكان وانواء التحليل النفسي مجموعة من الكتاب
- ٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢ رينيه ويليك
- ٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
- ٧٩- شعرية التأليف بوليس نوسيفسكي
- ٨٠- بوشكين عند «ناغورة الدموع» ألكسندر بوشكين
- ٨١- الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
- ٨٢- مسرح ميجيل ميجيل دي أونامونو
- ٨٣- مختارات غوتفريد بن
- ٨٤- موسوعة الادب والنقد مجموعة من الكتاب
- ٨٥- منصور العلاج (مسرحية) صلاح زكي أقطاي
- ٨٦- طول الليل جمال مير صابقي
- ٨٧- نوز والقلم جلال آل أحمد
- ٨٨- الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
- ٨٩- الطريق الثالث أنقوني جيننز
- ٩٠- وسم السيف ميجل دي ترياتس
- ٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
- ٩٢- أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميجل
- ٩٣- الإشبانوأمركي المعاصر مايك فينرستون وسكوت لاش
- ٩٤- محدثات العولمة صمويل بيكيت
- ٩٥- الحب الأول والصحة أنطونيو بويرو بايخو
- ٩٦- مختارات من المسرح الإسباني قصص مختارة
- ٩٧- ثلاث زنبقات ووردة فرنانز برودل
- ٩٨- هوية فرنسا مع ١ نماذج ومقالات
- ٩٩- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني بيفيد روبنسون
- ١٠٠- تاريخ السينما العالمية بول هيرست وجراهام تومبسون
- ١٠٠- مساطة العولمة بيرنار فاليط
- ١٠١- النص الروائي (تقنيات ومناهج) عبد الكريم الخطيب
- ١٠٢- السياسة والتسامح عبد الوهاب المؤدب
- ١٠٣- قبر ابن عربي يليه آباء برتولات بريشت
- ١٠٤- أوبرا ماهوجني جيرارچينيت
- ١٠٥- مدخل إلى النص الجامع د . ماريا خيسوس روبيرامتي
- ١٠٦- الأدب الأندلسي د . أشرف علي دعور
- ١٠٧- صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر نخبة ت . محمد عبد الله الجعدي
- ت . فوزان مجلي
- ت : حسن ناظم وعلى حاكم
- ت . حسن بيومي
- ت . أحمد درويش
- ت : عبد المقصود عبد الكريم
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : أحمد محمود ونورا أمين
- ت : سعيد الفانمي وناصر حلاوي
- ت : مكارم الفعري
- ت : محمد طارق الشرقاوي
- ت : محمود السيد علي
- ت : خالد المعالي
- ت : عبد الصمد شيحة
- ت : عبد الرازق بركات
- ت . أحمد فتحي يوسف شتا
- ت : ماجدة العناني
- ت : إبراهيم السوقي شتا
- ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
- ت : محمد إبراهيم مبروك
- ت : محمد هناء عبد الفتاح
- ت : نادية جمال الدين
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : فوزية العشموي
- ت : سري محمد محمد عبد الطيف
- ت : إدوار الخراط
- ت : بشير السباعي
- ت . أشرف الصياغ
- ت : إبراهيم قنديل
- ت : إبراهيم فتحي
- ت : رشيد بنحلو
- ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
- ت : محمد بنيس
- ت : عبد الغفار مكاوي
- ت : عبد العزيز شيبيل
- ت : د . أشرف علي دعور
- ت : محمد عبد الله الجعدي

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
١٠٩ - حروب المباد
١١٠ - النساء في العالم النامي
١١١ - المرأة والجريمة
١١٢ - الاحتجاج الهادي
١١٣ - راية التمرد
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنق
١١٥ - غرفة تخص المرأة وحده
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام
١١٨ - النهضة النسائية في مصر
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط
١٢١ - الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية
١٢٤ - الفجر الكائب
١٢٥ - التحليل الموسيقى
١٢٦ - فعل القراءة
١٢٧ - إرهاب
١٢٨ - الأدب المقارن
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)
١٣٢ - ثقافة العولة
١٣٣ - الخوف من المرايا
١٣٤ - تشريح حضارة
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
١٣٩ - باريسيفال
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعي
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة
- مجموعة من النقاد
جون بولوك وعادل درويش
حسنة بيجوم
فرانسيس هيندسون
أرلين علوى ماكليود
سادى پلانت
وول شوينكا
فرجينيا وولف
سينثيا نلسون
ليلي أحمد
بث بارون
أميرة الأزهرى سنيل
ليلي أبو لغد
فاطمة موسى
جوزيف فوجت
نيل الكسندر وفنادولينا
جون جراى
سيدريك ثورپ ديفى
فولفانج إيسر
صفاء فتحى
سوزان باسنيث
ماريا دولوريس أسيس جاروت
أندريه جوتدر فرائك
مجموعة من المؤلفين
مايك فينرستون
طارق على
بارى ج. كيمب
ت. س. إليوت
كينيث كونو
جوزيف مارى مؤاريه
إيقلينا تارونى
ريشارد فاجنر
هربرت ميسن
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فورستر
ديريك لايدار
كارلو جولونى
- ت : محمود على مكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحة الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقى جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروت
١٤٦ - الورقة الحمراء
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
١٥٠ - التجربة الإغريقية
١٥١ - هوية فرنسا مج ٢ ، ج ١
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى
١٥٣ - غرام القراءة
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى
١٥٧ - خسرو وشيرين
١٥٨ - هوية فرنسا مج ٢ ، ج ٢
١٥٩ - الإيديولوجية
١٦٠ - آلة الطبيعة
١٦١ - من المسرح الإسباني
١٦٢ - تاريخ الكنيسة
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)
١٦٥ - حكايات التعلب
١٦٦ - العلاقات بين المتدين واللعانين في إسرائيل
١٦٧ - في عالم طاغور
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة
١٦٩ - إبداعات أدبية
١٧٠ - الطريق
١٧١ - وضع حد
١٧٢ - حجر الشمس
١٧٣ - معنى الجمال
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء
١٧٥ - التلفزيون في الحياة اليومية
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية
١٧٧ - أنطون تشيخوف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث
١٧٩ - حكايات أيسوب
١٨٠ - قصة جاويد
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي
١٨٢ - العنف والتبوع
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما
- كارلوس فوينتس
ميجيل دي ليبس
تاتكريد دورست
إنريكي أندرسون إمبرت
عاطف فضول
روبرت ج. ليمان
فرنان برودل
نخبة من الكتاب
فيولين فاتويك
فيل سليتر
نخبة من الشعراء
جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
النظامى الكونجى
فرنان برودل
ديفيد هوكس
بول إيرليش
البخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
يوحنا الآسيوى
جوردن حارशल
جان لاکوتير
أ. ن أفانا سيفا
بشعياهو ليفمان
رابندرانات طاغور
مجموعة من المؤلفين
مجموعة من المبدعين
ميغيل دلبيس
فرانك بيجو
مختارات
ولتر ت. ستيس
ايليس كاشمور
لورينزو فيلشس
توم تيتنبرج
هنرى تروايا
نخبة من الشعراء
أيسوب
إسماعيل فصيح
فنسنت ب. ليتش
و.ب. بيتس
رينيه جيلسون
- ت : أحمد حسان
ت : على عبدالرزوف البعبي
ت : عبدالغفار مكاوى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت : بشير السباعى
ت : محمد محمد الخطابى
ت : فاطمة عبدالله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التلمسانى
ت : عبدالعزيز بقوش
ت : بشير السباعى
ت : إبراهيم فتحى
ت : حسين بيومى
ت : زيدان عبدالطيم زيدان
ت : صلاح عبدالعزيز محجوب
ت : بإشراف: محمد الجوهري
ت : نبيل سعد
ت : سهير المصادفة
ت : محمد محمود أبو غدیر
ت : شكري محمد عياد
ت : شكري محمد عياد
ت : شكري محمد عياد
ت : بسام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : جلال البنا
ت : حصة إبراهيم المنيف
ت : محمد حمدى إبراهيم
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : سليم عبد الأمير حمدان
ت : محمد يحيى
ت : ياسين طه حافظ
ت : فقهى العشرى

- ١٨٤- القاهرة .. حالة لا تتام
١٨٥- أسفار العهد القديم
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل
١٨٧- الأرضة
١٨٨- موت الأدب
١٨٩- العمى والبصيرة
١٩٠- محاورات كونفوشيوس
١٩١- الكلام وأسمال
١٩٢- رحلة إبراهيم بك جا
١٩٣- عامل النجم
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي
١٩٥- شتاء ٨٤
١٩٦- المهلة الأخيرة
١٩٧- الفاروق
١٩٨- الاتصال الجماهيري
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية
٢٠٠- ضحايا التنمية
٢٠١- الجانب البيني للفلسفة
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١
٢٠٣- الشعر والشاعرية
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات
٢٠٦- الهولوية تصنع علماً جديداً
٢٠٧- ليل إفريقي
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي
٢٠٩- السرد والمسرح
٢١٠- مثنويات حكيم سناني
٢١١- فريديمان دوسوسير
٢١٢- قصص الأمير مرزيان
٢١٣- مصر منذ فرعون نابليون حتى رحيل عبدالناصر
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جا
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان
٢١٨- لعبة الحجة (رايولا)
٢١٩- بقايا اليوم
٢٢٠- الهولوية في الكون
٢٢١- شعوية كفالي
- هانز ايندورفر
توماس تومسن
ميخائيل إنوود
بزرج علوي
الفين كرتان
بول دي مان
كونفوشيوس
الحاج أبو بكر إمام
زين العابدين المراهي
بيتر أبراهامز
مجموعة من النقاد
إسماعيل فصيل
فالتين راسبوتين
شمس العلماء شبلى النعماني
الدوين إمري وأخرون
يعقوب لاندأوي
جيرمي سيبيروك
جوزايا رويس
رينيه ويليك
الطاف حسين حالي
زالمان شانازار
لويجي لوقا كافاللي- سفورزا
جيمس جلايك
رامون خوتاسنديز
دان أوريان
مجموعة من المؤلفين
سناني الغزنوي
جوتاثان كلر
مرزيان بن رستم بن شروين
ريعون فلاور
أنتوني جيدنز
زين العابدين المراهي
مجموعة من المؤلفين
هن. بيكيت
خوليو كورتازان
كارو ايشجورود
باري باركر
جريجودي جوزدانيس
- ت: دسوقي سعيد
ت: عبد الوهاب غلوب
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: بدر الديب
ت: سعيد الغانمي
ت: محسن سيد فرجاني
ت: مصطفى حجازي السيد
ت: محمود سلامة علوي
ت: محمد عبد الواحد محمد
ت: ماهر شفيق فريد
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: أشرف الصباغ
ت: جلال السعيد الحفناوي
ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
ت: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد الطيف حماد
ت: فخرى لبيب
ت: أحمد الأنصاري
ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت: جلال السعيد الحفناوي
ت: أحمد محمود هويدي
ت: أحمد مستجير
ت: علي يوسف علي
ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت: محمد أحمد صالح
ت: أشرف الصباغ
ت: يوسف عبد الفتاح فرج
ت: محمود حمدي عبد الغني
ت: يوسف عبد الفتاح فرج
ت: سيد أحمد علي الناصري
ت: محمد محمود محي الدين
ت: محمود سلامة علوي
ت: أشرف الصباغ
ت: نادية البنهاوي
ت: علي إبراهيم علي منوفي
ت: طلعت الشايب
ت: علي يوسف علي
ت: رفعت سلام

- ٢٢٢- فرانز كافكا
٢٢٣- العلم في مجتمع حر
٢٢٤- دمار يوغسلافيا
٢٢٥- حكاية غريق
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى
٢٢٧- انسرح- الإسبايس في القرن السابع عشر
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد
٢٣٠- عن الذباب والفران والبشر
٢٣١- الدرافيل
٢٣٢- ما بعد المعلومات
٢٣٣- فكرة الاضمحلال
٢٣٤- الإسلام في السودان
٢٣٥- ديوان شمس تبريزي ج ١
٢٣٦- الولاية
٢٣٧- مصر أرض الوادي
٢٣٨- العولة والتحرير
٢٣٩- العربي في الادب الإسرائيلي
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
٢٤١- في انتظار البرابرة
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١
٢٤٤- الغليان
٢٤٥- نساء مقاتلات
٢٤٦- مختارات قصصية
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر
٢٤٨- حقول عدن الخضراء
٢٤٩- لغة التمزيق
٢٥٠- علم اجتماع العلوم
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج ٢)
٢٥٢- راندات الحركة النسوية المصرية
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية
٢٥٤- الفلسفة
٢٥٥- أفلاطون
٢٥٦- ديكرت
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة
٢٥٨- الفجر
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور
- رونالد جراي
بول فيراينز
برانكا ماجاس
جابريل جارتيا ماركث
ديفيد هربت لورانس
موسى مارديا ليف بوركي
جانيت وولف
نورمان كيچان
فرانسواز جاكوب
خايمي سالوم بيدال
توم ستينر
أرثر هومان
ج. سبنسر تريمنجهام
جلال الدين مولوي رومي
ميشيل تود
روبن فيرين
الانكتاد
جيلرافر - رايوخ
كامي حافظ
ج . م كويتز
وليام إيبسون
ليفى بروفتسال
لاورا إسكييل
إيزابيلا أديس
جابريل جارتيا ماركث
والتر إرمبريس
أنطونيو جالا
دراجو شتامبوك
دومنيك فينيك
جوردن مارشال
مارجو بدران
ل. أ. سيمينوفا
ديف روينسون وجودي جروفز
ديف روينسون وجودي جروفز
ديف روينسون ، كريس جرات
وليم كلي رايت
سير أنجوس فريزر
اقلام مختلفة
- ت: نسيم مجلى
ت: السيد محمد نقادى
ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
ت: السيد عبدالظاهر السيد
ت: طاهر محمد على البربرى
ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
ت: ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
ت: أمير إبراهيم العري
ت: مصطفى إبراهيم فهمي
ت: جمال أحمد عبدالرحمن
ت: مصطفى إبراهيم فهمي
ت: طلعت الشايب
ت: فؤاد محمد عكود
ت: إبراهيم الدسوقي شتا
ت: أحمد الطيب
ت: عنيات حسين طلعت
ت: ياسر محمد جادالله وعربي مديولى أحمد
ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
ت: صلاح عبدالعزيز محبوب
ت: ابتسام عبدالله سعيد
ت: صبري محمد حسن عبدالنبي
ت: على عبدالرؤف البمبي
ت: نادية جمال الدين محمد
ت: توفيق على منصور
ت: على إبراهيم على منوفى
ت: محمد طارق الشرقاوى
ت: عبداللطيف عبدالطيب عبدالله
ت: رفعت سلام
ت: ماجدة محسن أباطة
ت: بإشراف: محمد الجوهري
ت: على بدران
ت: حسن بيومي
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: محمود سيد أحمد
ت: عباده كهيلا
ت: فاروجان كازانجيان

- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع ج ٢
٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود
٢٦٢- مدينة المعجزات
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة
٢٦٥- روايات مترجمة
٢٦٦- مذهب المدرسة
٢٦٧- فن الرواية
٢٦٨- ديوان شمس تبريزي ج ٢
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١
٢٧٠- وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢
٢٧١- الحضارة الغربية
٢٧٢- الأديرة الأثرية في مصر
٢٧٣- الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط
٢٧٤- السيدة باربارا
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعرا وناقدا وكاتب مسرحيا
٢٧٦- فنون السينما
٢٧٧- الجينات: الصراع من أجل الحياة
٢٧٨- البدايات
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية
٢٨٠- من الأدب الهندي الحديث والمعاصر
٢٨١- الفروس الأعلى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية
٢٨٣- السهل يحترق
٢٨٤- هرقل مجنوننا
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامي
٢٨٦- رحلة إبراهيم بك ج ٢
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمي
٢٨٨- الفن الروائي
٢٨٩- ديوان منجوهري الدامغانى
٢٩٠- علم اللغة والترجمة
٢٩١- المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ١
٢٩٢- المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ٢
٢٩٣- مقدمة للأدب العربي
٢٩٤- فن الشعر
٢٩٥- سلطان الأسطورة
٢٩٦- مكبث
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية
- جوردن مارشال
زكى نجيب محمود
إيوارد مندوثا
جون جرين
هوراس / شلى
أوسكار وايلد وصموئيل جونسون
جلال آل أحمد
ميلان كونديرا
جلال الدين الرومي
وليم جيفور بالجريف
وليم جيفور بالجريف
توماس سى. باترسون
س. س. والترز
جوان آر. لوك
رومولو جلاجوس
أقلام مختلفة
فرانك جوتيران
بريان فورد
إسحق عظيموف
ف. س. سوندرز
بريم شند وآخرين
مولانا عبد الحلیم شرر الكهنوى
لويس وليبرت
خوان رولفو
يوريبيدس
حسن نظامي
زين العابدين المراغى
انتوني كنچ
ديفيد لودج
أبو نجم أحمد بن قوص
جورج مونان
فرانشيسكو رويس رامون
فرانشيسكو رويس رامون
روجر ألان
بوالو
جوزيف كامبل
وليم شكسبير
ديونيسيوس تراكس - يوسف الأهوانى
- ت: باشراف: محمد الجوهري
ت: إمام عبد الفتاح إمام
ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت: علي يوسف علي
ت: لويس عوض
ت: لويس عوض
ت: عادل عبدالمنعم سويلم
ت: بدر الدين عرودكى
ت: إبراهيم الدسوقي شتا
ت: مسيرى محمد حسن
ت: مسيرى محمد حسن
ت: شوقى جلال
ت: إبراهيم سلامة
ت: عنان الشهاوى
ت: محمود مكي
ت: ماهر شفيق فريد
ت: عبد القادر التمساتى
ت: أحمد فوزى
ت: ظريف عبدالله
ت: طلعت الشايب
ت: سمير عبدالحميد
ت: جلال الحفناوى
ت: مسير حنا صادق
ت: علي البمبي
ت: أحمد عثمان
ت: سمير عبد الحميد
ت: محمود سلامة علاوى
ت: محمد يحيى وآخرون
ت: ماهر البطوطى
ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
ت: أحمد زكريا إبراهيم
ت: السيد عبد الظاهر
ت: السيد عبد الظاهر
ت: نخبة من المترجمين
ت: رجاء ياقوت صالح
ت: بدر الدين حب الله الديب
ت: محمد مصطفى بدوى
ت: ماجدة محمد أنور

- ٢٩٨- مساة العبيد أبو بكر تفاقوا بليوه
- ٢٩٩- ثورة التكنولوجيا الحيوية جين ل. ماركس
- ٣٠٠- أسطورة برومئوس في الأدبين الانجليزي والفرنسي مج ١ لويس عوض
- ٣٠١- أسطورة برومئوس في الأدبين الانجليزي والفرنسي مج ٢ لويس عوض
- ٣٠٢- فنجنشتين جون هيتون وجودي جروفز
- ٣٠٣- بوزا جين هوب ويورن فان لون
- ٣٠٤- ماركس ريبس
- ٣٠٥- الجلد كروزيو مالاپارته
- ٣٠٦- الحماسة - النقد الكانطي للتاريخ جان - فرانسوا ليونار
- ٣٠٧- الشعور ديفيد بابينو
- ٣٠٨- علم الوراثة ستيف جونز
- ٣٠٩- الذهن والمخ أنجوس چيلاتي
- ٣١٠- يونج ناجي هيد
- ٣١١- مقال في المنهج الفلسفي كولنجوود
- ٣١٢- روح الشعب الأسود وليم دي بوز
- ٣١٣- أمثال فلسطينية خاير بيان
- ٣١٤- الفن كعدم جينس مينيك
- ٣١٥- جرامشي في العالم العربي ميشيل بروندينو
- ٣١٦- محاكمة سقراط أ.ف. ستون
- ٣١٧- بلاغ شير لايموفا- زنيكين
- ٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة نخبة
- ٣١٩- صور دريدا جايتر ياسيفاك وكريستوفر نوريس
- ٣٢٠- لعبة السراج في حضرة التاج مؤلف مجهول
- ٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ٢ ليفي برو فنسال
- ٣٢٢- وجهات غربية حديثة في تاريخ الفن دبليو يوجين كلينباور
- ٣٢٣- فن الساتورا تراث يوناتى قديم
- ٣٢٤- اللعب بالنار أشرف أسدى
- ٣٢٥- عالم الآثار فيليب بوسان
- ٣٢٦- المعرفة والمصلحة جورجين هابرماس
- ٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة نخبة
- ٣٢٨- يوسف وزليخا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
- ٣٢٩- رسائل عيد الميلاد تد هيوز
- ٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت هارفن شبرد
- ٣٣١- عندما جاء السردين ستيفن جراي
- ٣٣٢- القصة القصيرة في إسبانيا نخبة
- ٣٣٣- الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
- ت: مصطفى حجازى السيد
- ت: هاشم أحمد فؤاد
- ت: جمال الجزيري وبهاء جاهين وإبراهيم كمال
- ت: جمال الجزيري و محمد الجندي
- ت: إمام عبد الفتاح إمام
- ت: إمام عبد الفتاح إمام
- ت: إمام عبد الفتاح إمام
- ت: صلاح عبد الصبور
- ت: نبيل سعد
- ت: محمود محمد أحمد
- ت: صبح عبد المنعم أحمد
- ت: جمال الجزيري
- ت: محيى الدين محمد حسن
- ت: فاطمة إسماعيل
- ت: أسعد طيم
- ت: عبدالله الجعيدى
- ت: هويدا السباعى
- ت: كاميليا صبحى
- ت: نسيم مجلى
- ت: أشرف الصباغ
- ت: أشرف الصباغ
- ت: حسام نايل
- ت: محمد علاء الدين منصور
- ت: نخبة من المترجمين
- ت: خالد مقلح حمزه
- ت: هانم سليمان
- ت: محمود سلامة علاوى
- ت: كريستين يوسف
- ت: حسن صقر
- ت: توفيق على منصور
- ت: عبد العزيز بقوش
- ت: محمد عيد إبراهيم
- ت: سامى صلاح
- ت: سامية دياب
- ت: على إبراهيم على منوفي
- ت: بكر عباس

- ٢٢٤- لغظات من المستقبل
٢٢٥- عصر الشك
٢٢٦- متون الأهرام
٢٢٧- فلسفة الولاء
٢٢٨- نظرات حائرة (وقمىس أخرى من الهند)
٢٢٩- تاريخ الأدب فى إيران ج٢
٢٣٠- اضطراب فى الشرق الأوسط
٢٣١- قصائد من رلكه
٢٣٢- سلامان وأبسال
٢٣٣- العالم البرجوازى الزائل
٢٣٤- الموت فى الشمس
٢٣٥- الركض خلف الزمن
٢٣٦- سحر مصر
٢٣٧- الصبىة الطائشون
٢٣٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ج١
٢٣٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة
٢٤٠- بانوراما الحياة السياحية
٢٤١- عبادى المطلق
٢٤٢- قصائد من كفافيس
٢٤٣- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)
٢٤٤- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)
٢٤٥- التيارات السياسية فى إيران
٢٤٦- الميراث المر
٢٤٧- متون هيرميس
٢٤٨- أمثال الهوسا العامة
٢٤٩- محاورات بارمنديس
٢٥٠- أنثروبولوجيا اللغة
٢٥١- التصحر: التهديد والمجابهة
٢٥٢- تلعبذ بابنيبرج
٢٥٣- حركات التحرير الأفريقية
٢٥٤- حداثه شكسبير
٢٥٥- سأم باريس
٢٥٦- نساء يركضن مع الذئاب
٢٥٧- القلم الجريء
٢٥٨- المصطلح السردى
٢٥٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ
٢٦٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية
٢٦١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ج٢
- ارثرس كلارك
ناتالى ساروت
نصوص قديمة
جوزايا رويس
نخبة
على أصغر حكمت
بيرش بييريوچلو
راينر ماريا رلكه
نور الدين عبدالرحمن بن أحمد
فادين جورديمر
بيتر بلانجوه
يونه ندى
رشاد رشدى
جان كوكتو
محمد فؤاد كويرلى
ارثر والدرون وأخرون
أقلام مختلفة
جوزايا رويس
قسطنطين كفافيس
باسيليو بابون مالدوناند
باسيليو بابون مالدوناند
حجت مرتضى
بول سالم
نصوص قديمة
نخبة
أفلاطون
أنثريه جاكوب ونويلا باركان
ألان جرينجر
هاينرش شبوران
ريتشارد جيبسون
إسماعيل سراج الدين
شارل بودليير
كلاريسا بنكولا
نخبة
جيرالد برنس
فوزية العشماوى
كليرلا لويت
محمد فؤاد كويرلى
- ت: مصطفى فهمى
ت: فتحى العشرى
ت: حسن صابر
ت: أحمد الأنصارى
ت: جلال السعيد الحفناوى
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: فخرى لبيب
ت: حسن طلمى
ت: عبد العزيز بقوش
ت: سمير عبد ربه
ت: سمير عبد ربه
ت: يوسف عبد الفتاح فرج
ت: جمال الجزيرى
ت: بكر الطلو
ت: عبدالله أحمد إبراهيم
ت: أحمد عمر شاهين
ت: عطية شعاعة
ت: أحمد الانصارى
ت: نعيم عطية
ت: على إبراهيم على منوفى
ت: على إبراهيم على منوفى
ت: محمود سلامة علاوى
ت: بدر الرفاعى
ت: عمر الفاروق عمر
ت: مصطفى حجازى السيد
ت: حبيب الشارونى
ت: ليلى الشربينى
ت: عاطف معتمد وأمال شاور
ت: سيد أحمد فتح الله
ت: صبرى محمد حسن
ت: نجلاء أبو عجاج
ت: محمد أحمد حمد
ت: مصطفى محمود محمد
ت: البراق عبدالهادى رضا
ت: عابد خزندار
ت: فوزية العشماوى
ت: فاطمة عبدالله محمود
ت: عبدالله أحمد إبراهيم

- ٣٧٢- عاش الشباب
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه
٣٧٤- اليوم السادس
٣٧٥- الخلود
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين
٣٧٧- تاريخ الأدب في إيران جزء
٣٧٨- المسافر
٣٧٩- ملك في الحديقة
٣٨٠- حديث عن الخسارة
٣٨١- أساسيات اللغة
٣٨٢- تاريخ طبرستان
٣٨٣- مديّة الحجاز
٣٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
٣٨٥- مشترى العشق
٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
٣٨٧- أغنيات وسوناتات
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازي
٣٨٩- من الأدب الباكستاني المعاصر
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
٣٩١- الحافلة الليكوية
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
٣٩٣- في قلب الشرق
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
٣٩٥- الأم سياوش
٣٩٦- السافاك
٣٩٧- نيتشه
٣٩٨- سارتر
٣٩٩- كامى
٤٠٠- مومو
٤٠١- الرياضيات
٤٠٢- هوكنج
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس
٤٠٤- تعويذة الحسى
٤٠٥- إيزابيل
٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بقلم كاتبه
٤٠٨- معجم تاريخ مصر
٤٠٩- انتصار السعادة
- وانغ مينغ
أمبرتو إيكو
أنثويه شديد
ميلان كونديرا
نخبة
على أصغر حكمت
محمد إقبال
سنيل بات
جوتتر جراس
و. ل. تراسك
بهاء الدين محمد إسفنديار
محمد إقبال
سوزان إنجيل
محمد على بهزادراد
جانيت تود
جون دن
سعدى الشيرازي
نخبة
نخبة
مايف بينشى
نخبة
ندوة لويس ماسينيون
بول ديفيز
إسماعيل فصيح
تقى تجارى راد
لورانس جين
فيليب تودى
ديفيد ميرولتس
مسيانيل إنده
زيادون ساردر
ج. ب. ماك ايقوى
تودور شتورم
ديفيد إبرام
أنثويه جيد
مانويلا ماتقناريس
أقلام مختلفة
جوان فوتشركنج
برتراند راسل
- ت: وحيد السعيد عبدالحميد
ت: على إبراهيم على مؤلفي
ت: حمادة إبراهيم
ت: خالد أبو اليزيد
ت: إدوار الخراط
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: يوسف عبدالفتاح فرج
ت: جمال عبدالرحمن
ت: شيرين عبدالسلام
ت: رانيا إبراهيم يوسف
ت: أحمد محمد ندى
ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
ت: إيزابيل كمال
ت: يوسف عبدالفتاح فرج
ت: ريهام حسين إبراهيم
ت: بهاء جاهين
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
ت: عثمان مصطفى عثمان
ت: منى الدرويس
ت: عبداللطيف عبدالعليم
ت: نخبة
ت: هاشم أحمد محمد
ت: سليم حمدان
ت: محمود سلامة علوى
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: باهر الجوهري
ت: ممدوح عبد المنعم
ت: ممدوح عبدالمنعم
ت: عماد حسن بكر
ت: ظبية حميس
ت: حمادة إبراهيم
ت: جمال أحمد عبد الرحمن
ت: طلعت شاهين
ت: عنان المشهاوى
ت: إلهامى عمارة

- ١١٠- خلاصة القرن
١١١- فمس من الماضي
١١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢
١١٣- أغنيات المنفى
١١٤- الجمهورية العالمية للأدب
١١٥- صورة كوكب
١١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر
١١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٥
١١٨- سانس الزمر الحسنة في عصر العثمانية
١١٩- العصر الذهبي للإسكندرية
١٢٠- مكرو ميخاس
١٢١- الولا- والقيادة
١٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا ج١
١٢٣- إسرعات الرجل الطيف
١٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق
١٢٥- من طاووس إلى فرح
١٢٦- الخفافيش وقصص أخرى
١٢٧- بانديراس الطاغية
١٢٨- الخزنة الخفية
١٢٩- هيجل
١٣٠- كانط
١٣١- فوئو
١٣٢- ماكباثلي
١٣٣- جويس
١٣٤- الرومانسية
١٣٥- توجهات ما بعد الحداثة
١٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)
١٣٧- رحالة هندي في بلاد الشرق
١٣٨- بطلات وضحايا
١٣٩- موت المرابي
١٤٠- قواعد اللهجات العربية
١٤١- رب الأشياء الصغيرة
١٤٢- حتشبسوت (المرأة الفرعونية)
١٤٣- اللغة العربية
١٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة
١٤٥- حول وزن الشعر
١٤٦- التحالف الأسود
١٤٧- نظرية الكم
- كارل بوير
جينييفر أكرمان
ليفى بروفنسال
ناظم حكمت
باسكال كازانوفيا
فريدريش دورنيمات
أ. أ. رتشاردز
رينيه ويليك
جين هاوواي
جون مايو
فولتير
روى متحدة
نخبة
نخبة
نور الدين عبدالرحمن الجامي
محمود طلوعى
نخبة
باي إنكلان
محمد هوتك
ليود سبنسر وأندرزجى كروز
كرستوفر وانت وأندرزجى كليموفسكى
كريس هوروكس وزوران جفتيك
باتريك كيرى وأوسكار زاريت
ديفيد نوريس وكارل فلنت
نونكان هيث وچودن بورهام
نيكولاس زيربرج
فردريك كوبلستون
شيلى النعمانى
إيمان ضياء الدين بيبرس
صدر الدين عيني
كرستن بروستاد
أروندهاتى روى
فوزية أسعد
كيس فرستيغ
لاوريت سيجورنه
بروير نائل خاند
ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير
ج. پ. ماك إيفوى
- ت: الزواوى بغورة
ت: أحمد مستجير
ت: نخبة
ت: محمد البخارى
ت: أمل الصبان
ت: أحمد كامل عبدالرحيم
ت: مصطفى بنوى
ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
ت: عبد الرحمن الشيخ
ت: نسيم مجلى
ت: الطيب بن رجب
ت: أشرف محمد كيلانى
ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
ت: وحيد النقاش
ت: محمد علاء الدين منصور
ت: محمود سلامة علاوى
ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
ت: ثريا شلبي
ت: محمد أمان صافى
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: حمدى الجابرى
ت: عصام حجازى
ت: ناجى رشوان
ت: إمام عبدالفتاح إمام
ت: جلال السعيد الحفناوى
ت: عايدة سيف الدولة
ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
ت: محمد الشرقاوى
ت: فخرى لييب
ت: ماهر جويجاتى
ت: محمد الشرقاوى
ت: صالح علمانى
ت: محمد محمد يونس
ت: أحمد محمود
ت: ممدوح عبدالمنعم

ت: معدوح عبدالمنعم	ديلان إيفانز - أوسكار زاريت	٤٤٨ - عم نفس التطور
ت: جمال الجزيري	مجموعة	٤٤٩ - الحركة النسائية
ت: جمال الجزيري	صوفيا فوكا - ريببكا رايت	٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية
ت: إمام عبد الفتاح إمام	ريتشارد أوزبورن - بورن فان لون	٤٥١ - الفلسفة الشرقية
ت: محي الدين مزيد	ريتشارد إيجناتري - أوسكار زاريت	٤٥٢ - ليزن والثورة الروسية
ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان	جان لوك أرنو	٤٥٣ - القاهرة: إقامة مدينة حديثة
ت: سوزان خليل	رينيه بريدال	٤٥٤ - حسون عاما من السينما الفرنسية
ت: محمود سيد أحمد	فردريك كويلستون	٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)
ت: هويدا عزت محمد	مريم جعفرى	٤٥٦ - لا تسنى
ت: إمام عبدالفتاح إمام	سوزان مولر اوكين	٤٥٧ - النساء في الفكر السياسي الغربي
ت: جمال عبد الرحمن	خوليو كارو باروخا	٤٥٨ - الموريسكيون الأندلسيون
ت: جلال البنا	توم تيتنبرج	٤٥٩ - نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية
ت: إمام عبدالفتاح إمام	ستوارت هود - لينزا جانستز	٤٦٠ - الفاشية والنازية
ت: إمام عبدالفتاح إمام	داريان ليدر - جودي جروفز	٤٦١ - لكان
ت: عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى	٤٦٢ - طه حسين من الأزهر إلى السوربون
ت: كمال السيد	ويليام بلوم	٤٦٣ - الدولة المارقة
ت: حصة منيف	ميكانيل بارنتى	٤٦٤ - ديمقراطية القلة
ت: جمال الرقاعى	لويس جنزيرج	٤٦٥ - قصص اليهود
ت: فاطمة محمود	قبولين فانويك	٤٦٦ - حكايات حب وبطولات فرعونية
ت: ربيع وهبة	ستيفين ديلى	٤٦٧ - التفكير السياسي
ت: أحمد الأنصارى	جوزايا رويس	٤٦٨ - روح الفلسفة الحديثة
ت: مجدى عبدالرازق	نصوص حبشية قديمة	٤٦٩ - جلال الملوك
ت: محمد السيد الفنة	نخبة	٤٧٠ - الأراضى والجودة البيئية
ت: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم	نخبة	٤٧١ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ٢
ت: سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سابيندرا	٤٧٢ - بون كيوخوتى (القسم الأول)
ت: سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سابيندرا	٤٧٣ - بون كيوخوتى (القسم الثانى)
ت: سهام عبدالسلام	بام موريس	٤٧٤ - الآب والنسوية
ت: عادل هلال عنانى	فرجينيا دانيلسون	٤٧٥ - صوت مصر: أم كلثوم
ت: سحر توفيق	ماريلين بوث	٤٧٦ - أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسي
ت: أشرف كيلانى	هيلدا هوخام	٤٧٧ - تاريخ الصين
ت: عبد العزيز حمدى	ليوشيه شنج و . شى دونج	٤٧٨ - الصين والولايات المتحدة
ت: عبد العزيز حمدى	لاوشه	٤٧٩ - المقهى (مسرحية صينية)
ت: عبد العزيز حمدى	كو مو روا	٤٨٠ - تساي ون جى (مسرحية صينية)
ت: رضوان السيد	روى متحدة	٤٨١ - عبادة النهر
ت: فاطمة محمود	روبير جاك تيبو	٤٨٢ - موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية
ت: أحمد الشامى	سارة جامبل	٤٨٣ - النسوية وما بعد النسوية
ت: رشيد بنحو	هانسن روبييرت ياوس	٤٨٤ - جمالية التلقى
ت: سمير عبدالحميد إبراهيم	نذير أحمد الدهلوى	٤٨٥ - التوبة (رواية)

- ٤٨٦- الذاكرة الحضارية
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية
٤٨٨- الحب الذي كان وقصائد أخرى
٤٨٩- مُسْرَل: الفلسفة علماً دقيقاً
٤٩٠- أسفار البيفاء
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأمازيغي
٩٢- محمد علي مؤسس مصر الحديثة
٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات
٩٤- كتاب الموتى (الخروج في النهار)
٩٥- اللويحي
٩٦- الحكم والسياسة في أفريقيا
٩٧- العلامية والنوع والنوثة في الشرق الأوسط
٩٨- النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث
٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس
٥٠٠- في طقوسنا (دراسة في السيرة الذاتية العربية)
٥٠١- تاريخ النساء في الغرب
٥٠٢- أصوات بديلة
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسي الحديث
٥٠٤- كتابات أساسية ج١
٥٠٥- كتابات أساسية ج٢
٥٠٦- ربما كان قديماً
٥٠٧- سيدة الماضي الجميل
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومي
٥٠٩- القدر والإحسان في عهد سلاطين المماليك
٥١٠- الأرملة الماكرة
٥١١- كوكب مرثع
٥١٢- كتابة النقد السينمائي
٥١٣- العلم الجسور
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحدائق
٥١٦- إرادة الإنسان في شفاء الإيمان
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى
٥١٨- استكشاف الأرض والكون
٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة
٥٢٠- الولع بمصر من الحلم إلى المشروع
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها
٥٢٣- القرن الطليطلي الإسلامي والمدجن
- يان أسمن
رفيع الدين المراد آبادي
نخبة
مُسْرَل
محمد قادري
نخبة
جى فارجيت
هارولد بالمر
نصوص مصرية قديمة
إيوارد تيفان
إيكوانو بانولى
نادية العلي
جوديث تاكر ومارجريت مريوهن
نخبة
تيمز رووكي
أرثر جولد هامر
هدى الصدة
نخبة
مارتن هايدجر
مارتن هايدجر
ان تيلر
بيتر شيفر
عبدالباقي جلبنارلى
آدم هبيرة
كارلو جولونى
أن تيلر
تيموثى كوريجان
تيد أنتون
جونثان كولر
فدى مالطى بوجلاس
أرنولد واشنطنون- ودينا باوندى
نخبة
إسحق عظيموف
جوزايا رويس
أحمد يوسف
أرثر جولد سميت
أميركو كاسترو
باسيليو بابون مالونابو
- ت: عبدالحليم عبدالقنى رجب
ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
ت: محمود رجب
ت: عبد الوهاب علوب
ت: سمير عبد ربه
ت: محمد رفعت عواد
ت: محمد صالح الضالع
ت: شريف الصيفى
ت: حسن عبد ربه المصرى
ت: مجموعة من المترجمين
ت: مصطفى رياضى
ت: أحمد علي بدوى
ت: فيصل بن خضراء
ت: طلعت الشايب
ت: سحر فراج
ت: هالة كمال
ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
ت: إسماعيل المصدق
ت: إسماعيل المصدق
ت: عبدالحميد فهمى الجمال
ت: شوقى فهمى
ت: عبدالله أحمد إبراهيم
ت: قاسم عبده قاسم
ت: عبدالرازق عيد
ت: عبدالحميد فهمى الجمال
ت: جمال عبد الناصر
ت: مصطفى إبراهيم فهمى
ت: مصطفى بيومى عبد السلام
ت: فدى مالطى بوجلاس
ت: هبيرة محمد حسن
ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
ت: هاشم أحمد محمد
ت: أحمد الانصارى
ت: أمل الصبان
ت: عبدالوهاب بكر
ت: على إبراهيم منوفى
ت: على إبراهيم منوفى

٥٢٤ - بانورااما الإسلام الإسرائيلي	دان كاسبر وييريل ليمور	ت: أحمد المغازي
٥٢٥ - موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦ - علم السياسة البينية	ستيفن كروول ووليم رانكين	ت: محي الدين مزيد
٥٢٧ - كافكا	بيفيد زين ميروفيتس ودوروت كرمب	ت: جمال الجزيري
٥٢٨ - تروتسكي والماركسية	طارق علي وفيل إيلانز	ت: جمال الجزيري
٥٢٩ - مذائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	ت: حازم مخلوط وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ - منخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١ - ما الذي حدث في حدثه ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت: صفاء فتحي
٥٣٢ - المغامر والمستشرق	هنري لورنس	ت: بشير السباعي

رقم الإيداع ٣٣٢٠ / ٢٠٠٣
I. S. B. N.
477 - 305 - 369-5
مطابع المجلس الأعلى للآثار



H. LAURENS

L'AVENTUREUX ET L'ORIENTALISTE

شکشا و راسلات تاريخيتا حول :
الفارس اولاد الكاريس . لورانس ابن العرب
لويس ابن ماسينيون

